
عودة طيور القطا

رواية

عودة طيور القطا

وليد أبو فخر

عودة طيور القطا

تأليف : وليد أبو فخر

الطبعة الأولى: ٢٠٠٥

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

الإخراج الفني وتصميم الغلاف : فيصل حفيان

رقم موافقة وزارة الإعلام:

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف:٥٦٢٧٠٦٠ ـ فاكس: ٥٦١٣٢٤١

ص. ب : ٢٥٩ جرمانا

تقديم

لن أُقدّم للرواية أفضل من تقديم الكاتب لها، ولن أعرّف بالكاتب خيراً من الرواية ذاتها، أريد هنا أن أسجل فقط أنني شعرت وأنا أطالعها بسعادة مَنْ وجد الكلمات المناسبة المتدفقة حرارة، وصدقاً، والملتهبة أدباً وحنكة، للتعبير عما يختلج في قلبه من مشاعر، وما يدور في ذهنه من أفكار، وما يُثقل صدره من هموم.. ملكت عليّ الرواية كل كياني، وأخذتُ أقرأها بنهم وجدٍ فكان العمل ممتعاً، ومرهقاً في آن.

لقد سمعتُ منذ نعومة أظفاري أحاديث الوالد عن الظلم والمحن التي لاقاها شعبنا الأبي إبّان الإحتلال الفرنسي لوطننا، والمقاومة العنيفة والشجاعة التي قدمها للحصول على الحرية والجلاء، فما كادت فلول الجيوش التركية تنسحب من الأراضي العربية السورية حتى كانت جيوش فرنسا بقيادة الجنرال غورو تنذر الملك فيصل بمغادرة دمشق، ولم يمضِ على جلوسه إلا شهور قليلة. حيث انه في صبيحة ١٤ تموز من عام ١٩٢٠ قَدِم الكولونيل ينجر من بيروت إلى دمشق وقابله، وقدَّم له انذاراً خطياً فتأخرت حكومة دمشق بالإجابة على زعمه مما أعطاه مبرراً لإطلاق يده، وتقدمت قواته باتجاه ميسلون فسارع الأهالي إليها واجتمع جمع غفير من الثوار في محطة الحجاز لنقلهم إلى مكان الدفاع وهم مسلحون بالبنادق القديمة والسيوف والبلطات والعصي، وعندما أحكمت قوات المستعمر الفرنسي سيطرتها على البلاد والعباد لجأت إلى سياسة فرِّق تسد البغيضة، فقسَّمت البلد الواحد إلى عدة دويلات لها حكومات مستقلة،

ومـن الطريـف أنهـا وضـعت مـا أسمتـه التـشكيلات الأساسـية لحكومـة الجبل، وبعد أن اكتشف الشعب العربي أضاليل المستعمرين وزيف وعودهم أخذت سلسلة مـن حركـات المقاومـة تـشتعل في جميـع أرجـاء الـوطن الغـالي بزعامات عديدة وكان أشدها وأعنفها ثورة جبل العرب التي عمت أرجاء القطـر حتـى أنهـا امتـدت إلى لبنـان الـشقيق وإن أحـداً لا ينكـر إنهـا كانـت نقطـة تحـول في تـاريخ شـعبنا العربـي فكانـت الملهمـة للعديـد مـن حركـات التحرر والاستقلال في الوطن العربي.

فالثورة السورية الـكبرى بزعامة القائد المقدام المغفـور لـه سـلطان باشـا الأطرش أكدت أموراً كثيرة وأصبحت منطلقاً وأساسـاً للفكـر الـسياسي المعاصـر منهـا أولاً: أن قـوى الإحـتلال الموجـه إلى أي قطـر عربـي مـا هـي إلا خطر على جميع الأقطـار العربيـة الأخـرى، ثانيـاً: أن أي انـشقاق وتباعـد في سياسة المجابهة يعدُّ قوة كبيرة للعدو المغتصب لـذلك رفـع قائـدها الـشعار الخالـد: "الـدين للّه والـوطن للجميـع".. ثالثـاً: إن مقاومـة إغتـصاب الـوطن والعدوان عليه ليست إرهاباً، وليست فتنة وإنمـا هـي دفـاع مـشروع يُجَابَه بـه قـوى الغاصـب مهمـا كانـت قـوة هـذا الـدفاع بـسيطة تقـوم علـى الحجـارة أو علـى الـسيف أو البندقيـة. وإن هـذا الكتـاب الـذي شُـرِّفت بالتقـديم لـه بعـد قراءتـه والإطـلاع عليـه يختـصر قـصة معـارك البطولـة الأولى... هـو تـذكرة صـادقة، وموضـوعية لتـاريخ الثـورة فلولاهـا لم يرتفـع حجـرٌ فـوق حجـر في بلادنـا العزيـزة، فعلـى الـرغم مـن القهـر ومحـاولات الفَرْنَسة والـدمج، ونـشر الفساد وزراعة المحرمات في أرضنا المنيعة. لم تستطع أي قوة أن تقضي علـى نزعة هذا الشعب العريق في المقاومة والجهاد، والحفـاظ علـى هويتـه العربيـة

المشرقة، والدفاع عن قيمه الدينية الخالدة خاصة موقف سماحة الشيخ أبو حسين أحمد الهجري فأخذ يزور القُرى، والبلدان مندداً بسياسة الفرنسة، موضحاً مخازي الاحتلال، وأعماله بصورة تقشعر منها الأبدان. وينبه الشعب إلى خطورة زرع المحرمات وحرَّمه، وأنزل غضب الباري الجبار على كل مَنْ يزرع أو يتوسط أو يشتري أو يبيع هذا السم الزعاف وما أن سمع الشعب بهذا المنع حتى سارع بتطبيق هذه القرارات والنداءات وبادر إلى احترامها وإطاعتها وتنفيذ مضامينها فقاموا بقلع ما تبقى منه ورموا بقاياه التي كانت عندهم في الشوارع بعد إتلافها إتلافاً كاملاً تعبيراً عن التزامهم بالمنع مما أغضب السلطات المحتلة فسارعت بإرسال أحد ضباطها وهو ألويفار ليبلغ سماحة الشيخ أبو حسين أحمد الهجري بأن مصالح فرنسة الاقتصادية قد تضررت من قراره هذا وانه لا بد من التنسيق مع الجنرال حاكم البلاد، فأجاب بجرأة عالية: لقد نفذنا أمر الشرع ولا حاجة بنا إلى استئذان الجنرال.

ولا ننسى اشتراك أهالي دمشق والغوطة الفعّال، والمؤثر في الثورة السورية الكبرى وثورة الغوطة حيث قدموا أروع البطولات، وأظهروا الشجاعة النادرة، والصلابة الفائقة في القتال، ففي صباح يوم ١٨ تشرين الأول عام ١٩٢٥ أتى المفوض السامي الجنرال ساراي من بيروت ونزل في قصر العظم بدمشق فقام المجاهد حسن الخراط بتكليف مفرزتين لمهاجمة القصر واختطاف المفوض وبالفعل اختيرت مفرزة بقيادة المجاهد أبو علي كليب لمهاجمته من جهة زقاق الصواف، وقام المجاهد حسن البقعة بمهاجمته من جهة البزورية يساندهما ثُلة من مجاهدي جرمانا الأشاوس

وتمكنوا من دخول القصر واشتبكوا مع الحامية وكاد النصر أن يكون حليفهم لولا أن استشهد المجاهد أبو علي كليب.

لن أثقل على أعزائي القراء فإن هذا الكتاب لوحة بانورامية عن مختلف أشكال المجابهة والمقاومة التي أبدعها شعبنا خلال المسيرة الملحمية التي خاضها ضد الاحتلال، فالمقاومة لم تكن فقط عمليات ذات طابع عسكري قتالي ـ فهذه العمليات نفسها كانت محمية وتتم في حشد من الدعم الشعبي والمجابهات الشعبية، وإن المقاومة كانت تتم بالجسد والسلاح الخفيف فبطولات شعبنا الأبي، وحرصه على الوطن ووحدته هي التي أرغمت جيوش الاستعمار على الجلاء الذي هو في واقعه هروب من قدرات شعب اتخذ قراره الحاسم: بمقاومة الاحتلال، وبإصرار.

إن هذا الكتاب هو نتاج أدبي جديد لأحداث الثورة السورية الكبرى يضاف إلى مكتبتنا الوطنية المليئة من كتب تسهم في إلقاء الضوء على نضالات شعبنا العربي في سورية في سبيل الحرية والإنعتاق من ربقة الاحتلال.

وإننا لمتفائلون واثقون بالنصر، وإن أمة قدمت هذه الضحايا، وكتبت هذا التاريخ بدمها وسطرت حروفه بدموعها وسهرها لن تُخْذَل بإذن الله تعالى.

دمشق ٢٠٠٢م

القاضي ربيع زهر الدين

مستشار في مجلس الدولة

عضو محكمة القضاء الإداري

الفصل الأول

- ١ -

دخل القطار منطقة اللجاه٠ كانت الصخور تربض على جانبي الطريق بلونها الأبيض الشائب٠ بينما تغطت حوافها والبقع الفاصلة بينها بغطاء أخضر من العشب الربيعي الطري الذي ينشر في الجو رائحة الربيع٠ باعثة في النفس انتعاشاً لذيذاً٠

أشعل صقر سيجارته وسحب نفساً من الدخان. ومد ناظريه عبر نافذة القطار اتجاه الشرق. حيث أعماق اللجاه.

كان القطار يسير بسرعة بطيئة بين الصخور. كأنه قارب يسير بين أمواج البحر . تحجب النظر كتل صخرية ضخمة حيناً. وينفتح مجال الرؤية حيناً آخر. فتظهر اللجاه بهدوئها الأصم وبصخورها الجاثمة كأنها هياكل عمالقة تحجرت في الزمن القديم.

صفر القطار عند وصوله إلى أحد الجسور صفرته الحادة المتقطعة تـ ... و ... ت، تـ ... و... ت اعترت صقراً نشوة لذيذة لسماعه تلك الصافرة. التي يشوبها شيء من الحزن. لا تتناسب وضخامة جسم القطار وطوله.

(فكر متسائلاً)؟

- لماذا ينتابه الشعور بالعطف على هذا الشيء المعدني الطويل؟ حتى في أيام الثورة. عندما كان يذهب في مهمة من المهمات مع رفاقه الثوار حينما كانوا يقيمون في اللجاه لقطع طريق سكة القطار الواصل بين دمشق وازرع. كان يحس بشيءٍ من الشفقة على هذا الشيء المعدني!

ربما لأنه يشبه رجلاً عاجزاً يمشي على رجل واحدة..؟ فالقطار محكوم بخطه الحديدي الذي لايستطيع أن يخرج عنه يميناً أو شمالاً. وبالتالي فإنه يكون هدفاً سهلاً لمن يريد أن يهاجمه.

هاهي اللجاه أمام ناظريه. تلك التي كانت مبعثاً للخوف في نفوس المسافرين وعابري السبيل. بسبب كثرة قطاع الطرق والبدو. الذين يلوذون بها. وبأخشاعها وكهوفها الكثيرة والبدو الذين غالباً ما يهاجمون القوافل التجارية الذاهبة من الجبل إلى دمشق وبالعكس فيسلبونها حمولتها. وقد يقتلون ركابها. وكانت أرض اللجاه مسرحاً خصباً للكثير من الأحداث والقصص التي يقصّها الناس ويدخلونها في أدبياتهم الاجتماعية والتاريخية. وقد حدثه جده عندما كان صغيراً. كيف أن إحدى القوافل التجارية كانت قادمة من الشام إلى الجبل . فهاجمها بعض البدو حيث دارت معركة بين الطرفين . انتهت بقتل زعيم البدو والمهاجمين من قبل أحد رجال القافلة. كان الرجل القاتل يمتاز بالشجاعة والبسالة. وبالإضافة إلى ذلك. كان يتميز بعلامة فارقة هي جرح غائر في جبينه فوق العين.

وحدث أنه بعد سنين طويلة من تلك الواقعة. كان ذاهباً إلى الشام من أجل التجارة مع آخرين من أبناء الجبل وصدف أن الفصل كان شتاءً

والضباب يخيّم على اللجاه. تاه الرجال. ولم يشعروا إلاّ وهم في مضارب البدو الذين هاجموهم منذ سنين وقتل وقتها زعيمهم.

طلب شقيق زعيم البدو المقتول من أبناء أخيه أن يصفوا له الضيوف من حيث الشكل. فقد كان قد أصيب بالعمى منذ سنين. ولم يعد يرى. إلا أنه مازال يذكر أن الذي قتل شقيقه رجل في جبينه جرح غائر.

عندما وصف أبناء شقيقه الرجل المميز بين الرجال. طلب من أبناء شقيقه أن يقطعوا أسرجة خيل الضيوف كي لا يتمكنوا من الهرب. ويحرسوا الضيوف إلى الصباح وأن يطفئوا كل ضوء.

في الصباح تم اعتقال الضيوف. وطلب من الرجل ذي الجرح الغائر أن يقسم أنه ليس قاتل شقيق الرجل الكفيف. وقد سبق للكفيف أن طلب من أبناء شقيقه أن يطلقوا النار على الرجل ذي الجرح. إذا أقسم أنه لم يقتل شقيقه. فقد كان متأكداً أنه هو القاتل.

كان الرجل ذو الجرح الغائر من الشجاعة بمكان فأبى أن يكذب وأقسم أن الطلقة التي قتلت شقيقه خرجت من فوهة بندقيته إلى صدر أخيه مباشرة. وأنه هو قاتل شقيقه.

كان لموقف الرجل الشجاع تأثيره في نفس الشيخ الضرير وأبناء شقيقه. فلقد طغى الإعجاب بالشجاعة على روح الثأر والانتقام وبادروا إلى إطلاق سراح الرجل والذين معه بعد الاتفاق على دفع ديّة القتيل. كانت تلك الحادثة سبباً لإجراء مصالحة بين أهل الجبل وتلك القبيلة البدوية الضاربة في أعماق اللجاه.

تذكر يوم عاد من دمشق عبر اللجاه أواخر الصيف مع من عاد من تجار الجبل. جالباً معه البضائع الدمشقية. قدم أهل الصوانة للسلام عليه. أخذ الرجال يثنون على البضائع الدمشقية ويكيلون المديح لدمشق الشام.

الشام الله يعمرها، قال أحدهم.

الشام شامة الدنيا، علقّ آخر.

عندما انصرف الضيوف. فتح الصندوق الخشبي المطعّم الذي اشتراه لزوجته أم فهد. أخرج منه الهدايا لولديه فهد ويمنى. هي عبارة عن أثواب مزركشة. وشرائط شعر لابنته يمنى. لقد كانت ابنته ليلة سفره إلى دمشق قد أوصته أن يشتري لها شرائط شعر ملوّنة. كالتي تضعها ابنة خالتها في شعرها.

قفز الصغيران كعصفورين فرحين. مبتهجين بهداياهما. وراحا يجربّان الأثواب الجديدة عليهما.

أخرج صقر من الصندوق ثوباً من الموسلين الأصفر يصلح للنوم. جلبه لزوجته. أشرق وجهها عندما رأت هديتها واعتلته حمرة الخجل.

ابتسم لها ابتسامة ذات معنى خفضت ناظريها بغنجٍ ظاهر. وغمزت له أن تريث قليلاً. فالأولاد لم يناموا بعد.

- ٢ -

قرية الصوانة تقوم على جانبي وادي الذهب. الذي يجري بغزارة شديدة أيام فصل الشتاء. وتهدر مياهه المتدفقة من مناطق الجبل المرتفعة. هدارة عبر عدة قرى. مروراً بقرية الصوانة. حيث تنشطر القرية إلى نصفين. وعندما يكون غزيراً، خاصة أيام الثلوج. فإن الجسر الوحيد الذي يصل طرفي القرية ينغمر بالمياه. وبالتالي فإن القرية تقسم لعدة أيام بشكلٍ كامل.

عندما يقف أهل القرية على جانبي الوادي وهم يتصايحون كي يسمعوا بعضهم البعض. عندها تعلو الوجوه الابتسامات والضحكات. تنّم عن الفرحة بهذا الخير الذي جادت به السماء بفضل الباري عز وجل.وتستبشر بموسمٍ زراعي ورعوي جيد. يأخذ شكل بناء القرية. شكل بناء قلعةٍ حجريةٍ سوداء. تتواضع بيوتها جانب بعضها البعض. متلاصقة متلازمة. يعلو بعضها بعضاً. بحسب ارتفاع الأرض. حتى يبدو للناظر أنها أبراج قلعة نبتت في الهواء. أما الأسطحة فقد وصلت ببعضها البعض. حتى أن الإنسان يستطيع أن يعبر من سطح إلى آخر بسهولة تامة. وكما يقولون ان السياسة تصنعها الجغرافيا. فقد كانت القرية مقسومة إلى قسمين: الحارة الشمالية وتضم عائلة السالم ومناصريهم وعلى رأسهم ماجد السالم. والحارة الجنوبية، وتضم آل الظاهر ومناصريهم وعلى رأسهم أبو نايف محمود الظاهر.

كان هذان القطبان يستقطبان الناس حولهما كما يجذب المغناطيس برادة الحديد إلى طرفيه.

وبين هذين القطبين كان يسعى مسعود الحسون تقرّباً من هذا الطرف أو ذاك. مقدماً خدماته إليهما. متقاضياً بعض الامتيازات. كأن يحصل على قطعة من الأرض دون ثمن، أو بثمن رمزي.

كان مسعود الحسون بقامته الضئيلة وشكله الخارجي لا يوحي للإنسان إلا بمنظر الخادم المطيع. وقد سكن القرية بحجة الصداقة القديمة التي تربط والده والشيخ الأول. وقد استطاع بدهائه أن يحصل على أراضٍ واسعة عن طريق الهبات. أو الشراء من بعض الفلاحين الفقراء. بعد أن لم يكن يمتلك قطعة أرض واحدة.

تقوم استفادة مسعود الحسون على إشعال الخلافات في القرية وتأجيجها. فهو الكاسب الوحيد من هذه المنازعات العائلية السقيمة في غالب الأحيان.

يتصف محمود الظاهر بأنه عنيد. ويحب المخالفة في الرأي. خاصة إذا كان الموضوع مطروقاً من قبل آل السالم وحدث ذات مرة أن تم تعيين راعٍ للأغنام في القرية. كان الراعي مقرّباً من آل السالم. الأمر الذي لم يرق لمحمود الظاهر. فقام هو وجماعته بدوره بتعيين راعٍ آخر في القرية.

كان الرعاة غالباً ما يختلفون على المراعي. ذاك يشد ظهره بآل السالم. وذاك يشد ظهره بآل الظاهر.

يتخذ كراهية محمود الظاهر لآل السالم اتهامه إياهم، انهم كانوا وراء مقتل ابن عمه حسين خلال المعركة التي نشبت بينهما في القرية منذ سنوات.

عبثاً حاول الشيخ مصطفى أن يغيّر قناعة محمود الظاهر في ذلك. فيجيب باحتداد.

- دم حسين. أين يذهب ...؟

- لم يثبت أن آل السالم هم الذين قتلوه. لقد كان حوله ستة رجال عندما سقط. اثنان منهم من آل السالم فقط والباقي من عائلات أخرى.

- المهم. هم الذين سببوا الخلاف. ثم أنهم شاركوا في دفع الدية. وهذا يثبت أنهم مشتركون في دم حسين.

- حتى لو كانوا كما تقول. هل يعقل أن يكون ذلك سبباً لنزاع دائم. ثم إننا قبلنا بالصلح ومن يقبل بالصلح فإنه يعمل بمقتضاه.

بدوره. كان صقر السالم أخو ماجد السالم مستاءً من تلك النزاعات العائلية واستعار روح التنافس بين أخيه وأبي نايف محمود الظاهر. خاصة أن تلك المنافسات تبرز بشكل دائم في المناسبات العامة والشؤون التي تهم القرية. وكثيراً ماكان يقول له:

يا أبا قاسم. تمهل ولا تستفز لصغائر الأشياء. فنحن في النهاية أبناء قرية واحدة.

- أنا لي الحق في ذلك. والدنا كان زعيم هذه القرية. وله المواقف المعروفة. وأنت تعلم أن قسماً كبيراً من حياته أمضاه وهو طريد الدولة التركية. وقد تحمل مشاق النفي إلى تركيا بينما غيره حصل على الرتب والألقاب والأملاك الواسعة.

- نعم هذا صحيح. لكن آل الظاهر أيضاً لهم تاريخهم. ثم إن هذا التنافس يمكن أن يكون مدمراً أحيانا. ألا تذكر يوم ذهبنا مع وفد الجبل لمقابلة الأمير فيصل بن الشريف حسين في الأردن. كيف حاول كل منكما أن يتقدم للحديث قبل الآخر..؟ حتى أن الأمير فيصل ابتسم وقال: من وصل أولاً يأخذ سلاحاً قبل الآخر ويتكلم قبله.

- صحيح حصل ذلك. ثم يتابع ماجد ، لكن الله يشهد. رغم أنني لا أطيق محمود الظاهر ولا أطيق تنطحه لكل شيء. فإنني لا أقبل أن أحط من كرامته. أو أن ينتقص إنسان ما من شخصيته. والدليل على ذلك. أنه أتى منذ أيام بعض الرجال من جماعتي وقالوا إنهم تحرّشوا بمحمود الظاهر في ساحة القرية. وقاموا بضربه وإهانته. وقلت لهم: إن إهانة أبو نايف ليس بالأمر السهل وإذا ماكان ذلك صحيحاً فإنني لا أقبل ذلك.

كان ذلك في بداية عقد العشرينات من القرن العشرين حين شعر أهالي قرية الصوانة مثل سائر قرى الجبل الأخرى، بالتحرر من السيطرة التركية. والشعور بالانعتاق من نير الأجنبي. بعد صراع دام قروناً كانت ضريبة الدم تدفع غالياً من قبل الأهالي. حتى ظهرت طائرات فوق سماء القرية وقرى الجبل الأخرى تعلن بداية عصر جديد. ودخول قوات دولة جديدة إلى المنطقة. أكثر تطوراً وأكثر أسلحة. وهي مشبعة بالوعود والآمال بالتقدم والرقي وصيانة حقوق الإنسان.

كان لمرأى الطائرات في سماء القرية. وهي تشاهد لأول مرة من قبل السكان التأثير العجيب في نفوسهم.

الإعجاب والأمل بالتطور. واللحاق بركب الدول المتقدمة، خالطته الخشية والخوف من هذه الأجسام الطائرة إذا ماكانت تضمر شراً في المستقبل. خاصة أنها سلاح لا تكفي فيه شجاعة الشجعان لمقاومته.

كانت أخبار مندوب الدولة العظمى الجديدة تنتقل بين السكان وكما كانت أخبار تصرفاته في القرى التي يفرض عليها زياراته تبعث القلق في النفوس. خاصة إجراءات التضييق على حرية السكان. واستهتاره

بالعادات والتقاليد المحلية. واعتماده أشخاصا في القرى تحت اسم معلمين يفرضون مشيئته. ويكونون صورة مصغرة عنه.

قال صقر ذات يوم لأخيه ماجد:

- لماذا تريد استقبال الحاكم..؟ الناس يقولون إنه متغطرس ومتكبر ويقوم بحركات سخيفة يهين بها الناس.

- هذه الزيارة مفروضة علينا. أنت تعلم ذلك... ثم إنه قام بزيارة العديد من القرى. كما أننا نستطيع أن نعتبره ضيفاً.

- الضيف يا أبا قاسم لا يتصرف مثله. ففي قرية عين الغزال أجبر فرسان القرية على استقباله بالكامل وهم يهزجون. وإذا ما تخلف واحدٌ منهم فإنه يغرّمهم عشر ليرات ذهبية عن كل فارس... فأي ضيف هذا..؟

- نحن نقوم بالذي علينا. ونمد يدنا إلى الغير بالمودة فإن أخذها بالصداقة والمحبة عاملناه بمثلها. وإن كان العكس وتصرف كما تقول. فإنه يكون لنا موقف آخر وأنت ترى إذا لم نستقبله نحن. فإن محمود الظاهر سيستقبله هو... وبرأيك أنت من الأنسب أن يقوم باستقباله...؟

- الأفضل أن لا يستقبله أحد.

- لماذا ..؟

- لأن والدنا في عهد تركيا مغضوبٌ عليه. لأنه لم يتعامل معهم. والآن نحن لا نستمد كرامتنا من شخص مثل الحاكم.

- صحيح. لكن هذه المجاملات لا بد منها. وهي لا تعني بحال من الأحوال أننا نحترمه. ثم إن كل شيء مرهون بوقته.

كانت مضافة محمود الظاهر ترتفع عن سطح الأرض قليلاً. وقد علا ساكف الباب حجر روماني كبير يمثل بعض رسوم الكرمة وعناقيد العنب بشكل جميل وبديع. أما أرض المضافة. فهي من الحجر البازلتي الخالص. الذي شذّب بشكل جميل. وعلى الجوانب تقوم مصاطب حجرية تنسجم مع طابع البناء الحجري. وقد فرشت تلك المصاطب بالسجاد وبسط الصوف. بينما رصفت المساند والمخدات فوق بعضها البعض حتى تكاد أن تصل إلى السقف.

ومن سقف المضافة وقنطرتها الوسطى. تدلت سلسلة من الحديد. علق في نهايتها بيت زجاجي مخصص لحمل قنديل الزيت والشموع. وقد علا السخام والدخان سلسلة الحديد حتى أن حلقاتها تكاد أن تسد من السخام. وما أن تمسها الأيدي حتى يعلق السخام في اليد بلونه الأسود الداكن. في الوسط تقوم النقرة الحجرية المخصصة لأوعية القهوة المرة. وقد وضعت فوق جمرات من الحطب. وقد علا جيشانها الهادئ البطيء. بالوقت الذي كان محمود الظاهر يجلس على كرسي واطئ يحرّك القهوة على مهل. ثم يقوم بتصفيتها من وعاءٍ نحاسي إلى وعاءٍ نحاسي آخر. بينما كانت أبخرة القهوة تعبق في الجو. تنشر شعوراً بالانتعاش. ورغبة عارمة في صنع سيجارة من التبغ الحنبكي ذي النوعية الرديئة. الذي يتداوله معظم الناس المدخنين.

كان الرجال الحاضرون. الذين دعاهم محمود الظاهر لتدارس أمر زيارة الحاكم يلتفون بعباءاتهم وفرواتهم الصوفية اتقاء برد أواخر الشتاء. الذي مازال يسحب ذيوله ويبعث لواسعه القارصة. تلسع الخدود والأيدي.

سأل محمود الظاهر:

- ما رأيكم هل نذهب للسلام على الحاكم عند ماجد السالم..؟

- لا .. الأفضل أن لا يذهب أحد. قال الشيخ مصطفى. لأن أخبار الحاكم لا تسر. فإنه يمكن أن يقوم بإهانة أحد ما فيحدث ما لا تحمد عقباه.

- لكن عدم مشاركتنا يعني أننا أخلينا الساحة لماجد السالم. التالي فإنه يظهر وكأنه المسؤول عن القرية. وهذا أمر لا يجوز التسليم به.

قبل أيام من الدعوة طلب ماجد السالم من مسعود الحسون أن يحضر بعض الحلويات والأطباق والشوك والسكاكين من دمشق. لأن هؤلاء الفرنسيين متمدنون ويستحسن أن تكون موجودة. أفضل من أن يأخذوا فكرة أننا متخلفون.. قال صخر أبو النصر لمسعود الحسون.

- أمرك يابيك ... أجاب مسعود مسروراً.

ليلة الزيارة. صعد سلمان الراضي إلى سطح بيته. وهو رجل كفيف البصر. صاحب صوت جهوري، قوي. وهو يعمل منادياً في القرية. يقوم بالمناداة على الأشياء الضائعة كالحيوانات والأغراض الأخرى المفقودة.

كذلك يقوم بإذاعة أي قرار أو أمر مهم يخص المصلحة العامة في القرية. حيث يعتبر ذلك بمثابة تبليغ. ويكون الأجر عادة عدة بيضات دجاج. أو كمية من الحبوب أو بعض القروش إن وجدت.

سلمان الراضي، ذلك الكفيف الأعمى، الذي سرق الجدري نور عينيه. بعد أن سرق حياة الكثيرين من أبناء القرية. أمدّه عمى عينيه بنور بصيرة. وبذاكرة قوية. كذاكرة الحصان. فقد كان ينزل ويصعد على

أدراج بيوت القرية ومضافاتها الحجرية دون صعوبة تذكر، أو تعثر، تلك الأدراج غير المستوية. التي تفتقد إلى أي حماية جانبية تحمي الإنسان من السقوط، كان سلمان الراضي يصعدها وينزلها بسهولة المبصر. ذلك أنه اعتاد أن يحسب عدد الدرجات في كل بيت. إلا مرة واحدة أخطأ في العد فسبب سقوطه عن أحدها. مما أثار استغراب واستهجان أهل القرية.

تلك المفارقة!

لو أن أحد المبصرين قد وقع لما استغرب أحد. ذلك أن من عادة الناس السقوط والتعثر. أما سقوط سلمان الراضي الأعمى فذلك أمر مستغرب...!

لقد أمده عماه بشهرة واسعة. وأصبحت تحكى عنه النوادر والطرف من قبل أهل القرية. حيث يدخل سلمان الراضي إلى أماكن ويخرج منها مما يصعب أحياناً على المبصرين.

المهم أن سلمان الراضي قد طلب عصر ذلك اليوم من أهل القرية وبناءً على طلب ماجد السالم وبصوته الجهوري. الذي مدّه حتى آخره.

- يا قرا... يينا أهـ... ل البـ... لد، لازم بكرة تحضروا كبير مع صغير قدام مدخل البلد حتى بيت صخر أبي النصر لأجل استقبال الحاكم... ويقوم سلمان الراضي بتكرار النداء مرة أخرى بأعلى صوته وهو يدور في كل الاتجاهات.

ياقرا... يينا أهـ... ل البـ... لد.

- ٣ -

في صبيحة يوم زيارة الحاكم. حلقت طائرة فرنسية فوق سماء القرية. جابت سماءها عدة مرات. وهي تقوم بحركات استعراضية. تميل بجناحها ذات اليمين حيناً، وذات الشمال حيناً آخر.

صعد بعض سكان القرية إلى أسطحة منازلهم كي يشاهدوا حركات الطائرة. بينما علا ضجيج الصبية وصراخهم من الدهشة والإعجاب بهذه الطائرة العجيبة. أخذوا يتراكضون بقمصانهم الطويلة وأرجلهم الحافية مشعثي الرؤوس. كي لايفوتهم منظر الطائرة. ينتابهم الخوف حين تأتي الطائرة قادمة على ارتفاع منخفض. حتى تكاد أن تصطدم ببعض مضافات القرية العالية.

كانت الغيوم البيضاء تغطي جزءاً من السماء الربيعية. التي يتخللها زرقة صافية. تغيب فيها الطائرة أحياناً. ثم تعود لتظهر من جديد من وراء السحب بشكلٍ يبعث على الدهشة في كيفية اختفائها وظهورها المفاجئين من خلال السحب.

كان قدوم الطائرة ذلك الصباح، مبعثاً لابتهاج ماجد السالم وزيادة حماسه. لأن الطائرة قدمت من أجل زيارة الحاكم إلى بيته في ذلك اليوم. هذا مما يعطيه ميزة تفوق على غريمه محمود الظاهر.

إلا أن هذا الفرح الظاهر. انتابه شيء من القلق. فبالإضافة إلى حدوث شيء هام بالنسبة للسكان. وهو أن صلتهم بالعالم الخارجي أصبحت أقوى وأسرع. حيث يمكن بوقت قليل أن تأتي مثل هذه الطائرة من السويداء أو

من دمشق إلى أية منطقة من مناطق الجبل. وبالتالي فإن العزلة القديمة التي عاشها الناس قد حكم عليها بالانتهاء.

إلا أن هذه الطائرات هي شيء جديد. يحسب لها الحساب في أي نزاع مقبل. لم يكن موجوداً في عهد الدولة التركية أو غيرها من العهود.

قبل ظهر ذلك اليوم. كانت ثلاث سيارات ميدانية تتقافز على طريق القرية الترابي. قادمة من السويداء مثيرة زوبعة من الغبار خلفها. تتقدمها كوكبة من الفرسان السباهيين وخلفها كوكبة أخرى من الفرسان الشركس. يميزهم القلبق فوق رؤوسهم.

كانت الطريق الترابية المتعرجة. تجعل السيارات السائرة فوقها لا تستقر في سيرها. فهي إلى جهة الشمال وإلى اليمين أحياناً تسير. محاذرة الحفر الكثيرة في الطريق غير المستوية بحيث تجعل الراكب الذي ملأ بطنه بأدسم أكلة يهضمها خلال وقت قصير. إلا أن انتشار الربيع بنباتاته الشوكية على جانبي الطريق. وأزهاره المتنوعة الألوان قد أنست الركاب مشاق الطريق. وأخذ البعض منهم يسرّح الطرف في الطبيعة الخضراء والطيور المغردة. المزقزقة. الشبعة. وهي تطير. حبلى بالطعام. بصوتها الذي يعبر عن دعة واطمئنان كبيرين فهذا هو عصفور صغير من نوع الحسون. قد وقف على نبتة شوكية يزقزق. ينشر ذيله الجميل، خافضاً رأسه عند كل صوت زقزقة يطلقها ... ماذا يريد...؟

ربما ينادي عروسه في هذا الموسم الربيعي الذي يعتبر الوقت الملائم للتزاوج وبناء العش...

ذلك العصفور أقلقه هدير السيارات القادمة بشكلها وصوتها الموحش. يقفز بعيداً ليحط بين زروع القمح في الحقل المجاور للطريق. يواصل غناءه. وربما مناداته لأنثاه. أن هلمي. تعالي إليّ. فها هنا آمن من هناك.

كانت السيارة الأولى تحمل بالإضافة إلى السائق، الحاكم وصحافي فرنسي من صحيفة الشرق وترجمانه الخاص، اللبناني الأصل.

أما السيارة الثانية فكانت تحمل الملازم فاليه وزوجته الفاتنة بالإضافة إلى صديقتها. يبدو عليها علائم الابتهاج لأنها قادمة لتشاهد الناس الذين قدموا بمهمتهم الإنسانية لتمدينهم وترقيتهم .... هكذا فهمت الأمور، وهذا ما تعلمته من المدرسة الفرنسية فيما وراء البحار.

والسيارة الثالثة تحمل بعض أصدقاء الحاكم. رجلان وامرأتان تم دعوتهم لحضور حفلة الغداء.

كانت مدام فاليه مزهوة بنفسها بشكل واضح. في ضحكاتها المغناج. وثوبها الزهري الجميل. ذي الشق أمام الصدر حيث يظهر مفاتن جسدها بشكل واضح. وفوقه عنق أبيض مشرّب بالحمرة. أما غطاء الرأس فهو غاية في الأناقة، يميل إلى جانب. ويظلل جزءاً من وجهها. حامياً إياه من أشعة الشمس الربيعية التي دخلت من خلال نوافذ السيارة فأضاءت الوجوه ورسمت ظلاً للسيارة يقفز إلى جانبها في الطريق المتعرج الطويل.

وتعتبر مدام فاليه أن حظها جيداً. حيث يتاح لها أن ترى بلاداً لطالما سمعت عنها في القصص والروايات التي سمعتها وهي صغيرة وقرأت عنها وهي كبيرة. عن الشرق وأهله وعاداته وتقاليده. حيث الشمس تسطع معظم

أيام السنة. ويغدو الحصول على مياه الشرب من المهام المضنية في هذه البلاد. فيحكم على أهلها بالعيش على حافة الحياة.

هي ابنة البلاد التي لا تفتر السماء فيها عن هطل المطر. ذات الأنهار الدائمة الجريان. كل ذلك يولد لديها شعوراً بأنها مشتركة مع زوجها في مهمته الإنسانية تلك. أما السيد فاليه، فهو لا يعير انتباها لزوجته أو لأفكارها. حتى لو أنه علم بماذا تفكر، فإنه سرعان ما يبتسم ابتسامة فيها سخرية من زوجته وأفكارها البلهاء. فهو مشغول ليس بالطبيعة التي تشغل زوجته وصديقتها. بل في كيفية قضاء هذا الوقت الذي سيقضيه في القرية خلال فترة الغداء. تلك الزيارة التي يعتبر فاليه أنها سخيفة. وعديمة الفائدة. ولا تسبب قيام أية صداقة مع هؤلاء القوم. إلا أنه مضطر لمسايرة رئيسه في محاولاته التودد إلى هؤلاء السكان. الذين لا يحب مجاملاتهم الكثيرة واعتدادهم الزائد عن الحد بأنفسهم.

كان الحاكم يشرح لضيفه الصحافي وهو في الطريق. أن طريق قرية الصوانة وطرق القرى الأخرى. تم شقها في عهده. وبإشرافه شخصياً. بعد أن كانت تلك القرى معزولة عن بعضها البعض، ولا يصل بينها أي طريق سوى الطرق التي تسير عليها الدواب والمشاة منذ مئات السنين.

أومأ الصحافي برأسه بإعجاب. متسائلاً عن ميزانية الحكومة المحلية التي تستطيع تمويل مثل هذه المشاريع؟

قال ضاحكاً:

- لا ... لا ... ياعزيزي.

إن هذه الطرق نفذت بجهود الأهالي. ودون أجر. فلا معنى هنا لتطبيق قانون العمل الفرنسي.

- لكن يا سعادة الحاكم. قال الصحافي:
- إن أعمال السخرة ممنوعة كما أعلم حتى خلال الحروب.
- وهل تشك أن الرومان القدماء قد شيدوا تلك الأبنية الفخمة التي رأيت بعضاً منها. وقاموا بشق تلك الطرق وأشار بيده إلى طريق رومانية قديمة تصل بين دمشق وشرقي الأردن مروراً بالجبل. إن تلك الطرق والأعمال العظيمة قد تم تنفيذها بالسخرة وحدها...!

ثم أضاف بثقة:

- إننا ياعزيزي نعيد أمجاد روما وبلاد الغال القديمة وإن بشكل مصغّر.

قال الحاكم ذلك وأسند رأسه إلى مقعد السيارة باطمئنان وكله يقين أنه سليل أولئك الأباطرة الرومان الذين حكموا الشرق وأقاموا المدن والمسارح العظيمة.

عن بعد. ظهرت السيارات وقد علاها الغبار المتطاير. فازدادت حماسة الحشود المجتمعة. وأخذ مسعود الحسون يحثّ الناس على الأهازيج والغناء ترحيباً بالضيوف. بينما اصطف الفرسان على جانبي الطريق وهم بكامل أسلحتهم استقبالاً للضيوف.

وصلت السيارات وسط القرية. قرب الجسر القديم وتوقفت فأسرع ماجد السالم لاستقبال الضيوف بينما كان الحاكم ومرافقوه قد نزلوا من سياراتهم وراحوا يرفعون طاقياتهم عن رؤوسهم تحية للجمهور.

كانت النساء اللواتي قدمن مع الضيوف يمشين وهن يرفعن أطراف فساتينهن عن الأرض وقد علت وجوههن السعادة حينما وجدن أنفسهن موضع ترحيب واهتمام لم يكنّ يحلمن به في بلادهنّ.

كانت جموع المستقبلين خليطاً من الرجال والنساء والأطفال يدفعهم الفضول لرؤية أولئك الناس الأجانب الذين قدموا بأثواب وأشكال جديدة.

فها هي امرأة تقف بين الجموع تحمل ابنها على كتفها ترقب مرور النساء المتعطرات اللواتي يلبسن أثواباً بلون الزهر وينتعلن أحذية عالية تظهر جمال سيقانهن ونعومة أقدامهن. وها هو طفل طفق يبصبص من بين صفوف المستقبلين. علّه يحظى برؤية أولئك الضيوف الذين طلب من أهل القرية استقبالهم.

كان الطفل مدفوعاً برغبة عارمة لرؤية أولئك الناس. الذين يملكون الدنيا بكل ما فيها من متعٍ وسعادةٍ ومال كما حدثته أمه عنهم ذات يوم.

يابنيّ: لقد خيّرنا بين الدين والدنيا فاخترنا نحن الدين ولم نختر الدنيا وزركشتها. أما هم فقد اختاروا الدنيا وما فيها ولم يختاروا الدين. وهكذا تراهم يلبسون أحسن لباس ويأكلون أحسن طعام. وهم دائماً ضاحكون. يستمتعون بالسعادة والحب والجمال. فكل شيء مباح لهم. والمال في جيوبهم دائماً.

التقت عيناه بعيني إحدى النساء القادمات. التي ابتسمت له ضاحكة ولوحت له بيدها عندما شاهدته وهو يطل برأسه من بين أجساد الرجال الذين يسدون الطريق أمامه. ابتسم لها. وأشرق وجهه وراح يتابعها بنظراته.

تمنى أن يذهب معها حيثما تذهب. ويرى عالمها الذي حدثته عنه أمه. عالم زهري. جميل ضاحك.

تذكر قول أمه.

- يابنيّ نحن اخترنا الدين وهم اختاروا الدنيا.

فكر بينه وبين نفسه.

- ماذا يضير لو أطللت قليلاً على عالم الدنيا. ونهلت قليلاً منها وارتشفت بعض جمالها الوضاء ... أعتقد أن ذلك لا يعتبر خرقاً للتقسيم الذي وضعته أمي في ذهنها بين أهل الدنيا وأهل الدين؟

بل ماذا يضير لو أطل أحدنا إلى عالم الدنيا يا أمي ونهل منها قليلاً. إن ذلك لا يخرجه من عالم الدين الذي ذكرته.

إن ذلك من قبيل الاختيار كي يتبين الإنسان الذي يصمد أمام مغريات الدنيا والإنسان الذي يسير في ركابها. فالدنيا يا بني قصر مليء بأنواع الجواهر والرياش والحوريات والطيور المغردة. إلا أن أرضه لزجة. وكلٍ منا مجبر على المرور في هذا القصر. فإن الذي تلهيه مغرياته ومتعه. سيعلق حتماً في اللزوجة. أما الذين لا تلهيهم تلك الأشياء. فإنهم سعيبرون أرض القصر دون أن تعلق أرجلهم في اللزوجة... هكذا قالت الأم.

قاد ماجد السالم الضيوف نحو بيته. مروراً بشارع ضيق. بينما سارت جموع المستقبلين خلف الموكب وهم يهزجون ويغنون بينما راح مسعود الحسون يسعى بين يدي ماجد السالم وبين الحاكم. وهو يتلفظ ببعض العبارات الفرنسية.

- أهلاً وسهلاً سيدي.

وصل الموكب إلى باب دار صخر أبي النصر. وهي عبارة عن قنطرة كبيرة رومانية. يدلف منها الإنسان إلى ساحة واسعة هي أرض الدار. تتموضع حولها معالف من الحجر المنحوت أعدت للخيول. وبجانب الساحة درج حجري يصعد إلى المضافة التي ترتفع عالياً بهيبة ووقار.

لفت نظر الحاكم القنطرة الرومانية وتفصيلة الدار الداخلية وتوقف عند حجر روماني قديم موضوعاً في ركن من أركان الساحة. ومنقوش عليه كتابات لم يعرف معناها أهل القرية سأل الحاكم عماهو مكتوب على الحجر؟

أجاب ماجد السالم عن طريق المترجم.

- هذا الحجر موجود في الدار من أيام جدي، ولا نعلم ماهي هذه الكتابة... ناس يقولون إنه يوناني. وناس يقولون إنه روماني. وقد أتى بعض الرجال المغاربة إلى هنا، وعاينوا الحجر وحاولوا نقله إلا أننا لم نسمح لهم أن يأخذوه.

جلس الضيوف أمام المضافة. بينما كانت الجموع تحتفل في الساحة وفي الشارع المجاور للدار.

أدار مسعود الحسون التوت بكؤوس جلبها خصيصاً من دمشق على الضيوف وهو يبادلهم بعض العبارات باللغة الفرنسية. تعلو وجهه البشاشة والكياسة. كأنه عمل خادماً أو نادلاً من قبل طوال عمره.

جذب صخر مسعود الحسون من كمه وقال له:

- أين تعلمت الكلام الافرنسي ياابن اللعينة؟

- خدامك يابيك... كنت أذهب إلى السويداء وأدخل إلى الثكنات العسكرية أبيع وأشتري من العسكر وأتحدث مع الموظفين الفرنسيين حتى أدبّر أموري.

- كانت مدام فاليه تراقب الناس المحتفلين بقدومهم. خاصة الشباب منهم. الذين يقومون بحركات الرقص والدبكة على أنغام المجوز والناي. بعيونهم المكحولة وجدائل شعرهم المرسلة على أكتافهم وهي تستشف أن هذه النظرات البرية يصعب ترويضها. فكما هي بسيطة وساذجة فإنها تحوي الكثير من العناد والتمرد. وشيئاً من أسرار الشرق وسحره.

لكزت بكوعها رفيقتها. وأشارت بيدها إلى أحد الشبان الذين كانوا يرقصون. وقد شدّ انتباهها بحركاته الرشيقة حين ينزل إلى الأرض على رجل واحدة. ثم يهب واقفاً على رجل واحدة أيضاً. ثم يعود ويلقي رأسه إلى الخلف محنياً ظهره إلى أقصى ما يستطيع. حتى أن غدائر شعره قد تصل إلى الأرض ثم يعود منتصباً على رجليه. هازاً كتفيه هزات عنيفة مطلقاً أصواتاً من فمه. تضيف إلى سيمائه الرجولية وعينيه الواسعتين البراقتين، مزيداً من الجذب والإعجاب.

- انظري .... هكذا تكون الرجال.

- وزوجك ...؟ سألت الأخرى. ناظرة إليها بطرف عينها ثم أضافت. ألا يستهويك ..؟

- نظرت إليها نظرة خبث وأطلقت تنهيدة وأجابتها بانزعاج.

- إنه يأتي في الليل مخموراً. ويصنع جداول وقوائم على الطاولة بعد سهرة يقضيها مع معلمه الحاكم ثم يأخذ يحدثني عن الجواسيس الذين تم تعيينهم وعن الأشخاص الذين تم اعتقالهم... ولا أعرف ماذا يقول أيضاً وأشارت بعدها اشارة تدل على القرف والانزعاج.

أما أنا فأكون عندها قد بدأت أتثاءب وغلبني النعاس ورقدت على السرير وأدرت له ظهري وتركته يخلع جزمته على الأرض ليلقي بعدها جسده على السرير من شدة التعب.

سأل الضيف الذي يرافق الحاكم.

- هل هؤلاء القوم يغنون ويرقصون. أم يسيرون إلى معركة؟

- إني أرى النار تتقد في عيونهم وخبطات أرجلهم على الأرض فيها الكثير من الشدة. فلم أستطع تفسيرها؟

- إنهم هكذا. يبدون وكأنهم على وشك التمرد. لكنهم أناس طائعون وينقادون بسهولة. وأخبار التمرد التي سألتني عنها البارحة لا أساس لها من الصحة. هم عبارة عن مجموعة من العصاة تقوم الدولة بمطاردتهم في المنطقة الجنوبية.

قدّم الطعام في مناسف نحاسية كبيرة. وقد وضع في كل منسف خاروف محشي كامل وفي فمه ضمة من نبات النعنع وقد زينت أطراف المنسف باللوز والصنوبر والكبب المختلفة. المسلوقة منها والمقلية. ثم قام ماجد السالم بصب السمن على المناسف يعاونه في ذلك مسعود الحسون.

بعد تناول وجبة الطعام. أشعل الحاكم لفافة تبغ وهو يسرّ إلى صديقه قائلاً:

- أليس الطعام شهياً؟ ... كطعام قصص ألف ليلة وليلة في قصور أبطال الرواية.

- نعم .. نعم .. إنه كذلك.

أديرت القهوة على الضيوف. بينما كان مسعود الحسون يوزع بعض قطع الكاتو غير المتناسقة في الأطباق التي جلبها خصيصاً لهذه المناسبة. مما أثار انزعاج ماجد السالم. فقال له بحده:

- ما هذا الكاتو المكسّر؟

الطريق يا أبا قاسم هو السبب. حملناهم من الشام إلى أزرع بالقطار. ثم حملناهم على الجمل... كيف تريد أن يكونوا..؟ مليح اللي وصلوا بهذا الشكل!

طلب أبو نايف محمود الظاهر أن يقوم الضيوف بزيارة له وشرب فنجان قهوة عنده.

ترجم المترجم كلام أبو نايف مشيراً إلى اسمه.

- نعم. أنت شخص معروف... وسنأتي مرة أخرى لزيارتك. أجاب كاربييه مبتسماً.

كان أبو علي كايد موجوداً بين الحضور، وهو بطبعه رجلاً مهماً لايتحدث إلا نادراً. ولا يحب الحركات الصبيانية وقضايا الولدنة، وقد رأى أن ما يقوم به هذا الحاكم هو سخافة بسخافة. وهي أقرب إلى تصرفات صبي قليل الأدب. لذلك لم يقم بأية حركة أو محاولة للتقرب منه أو مجاملته بكلمة ما.

الأمر الذي أثار حفيظة الحاكم فرفع خيزرانة كانت معه ووضعها على كتف أبو علي كايد وقال متسائلاً:

- لماذا لا تغني مثل الآخرين ؟

لم يفهم أبو علي كايد اللغة الفرنسية فأسرع المترجم يترجم كلام الحاكم.

- وقبل أن يجيب أبو علي كايد أجاب ماجد السالم.

- إنه يا سعادة الحاكم طبعه هكذا. فهو لا يضمر شراً لكم أو لفرنسا.

- لا.. لا ...إنه لا يحب فرنسا. قال الحاكم بحزم. غداً أريد أن يكون ذلك الحجر. وأشار بيده إلى الحجر الروماني الجاثم في ركن من أرض الدار. أريده أن يأخذه بنفسه إلى السويداء ويضعه أمام دار الحكومة.

كان أبو علي كايد رجلاً طويل القامة عريض المنكبين. له شاربان مفتولان. حتى يكاد الصقر أن يقف عليهما. كما يقال. ذا عينين واسعتين ثابتتي النظرات. تستشف الصدق فيهما. فقد كان رجلاً باختصار .. فعله أكثر من كلامه، وقد شدّت الأيام عوده. وصلبت إرادته السنون. وحدث أن فقد اثنين من أبنائه بمرض الحصبة خلال أيام قلائل. وكان يقول عندما يضع الإبن المتوفى في القبر بجانب أخيه:

إنهم يبدون كالنائمين. حتى أنك تتصور أن عوامل الموت والفناء قد أشفقت على الطفولة. ولم تسارع إلى تحلل الجسد الطفولي.

وعندما كان في حرب البلقان مجنداً في الجيش التركي سنة ١٩١١ اختلف مع آمره التركي عندما أراد ذلك الآمر أن يجهز على الجرحى الذين يسقطون في ميدان المعركة. وقد رفض أبو علي كايد الأمر واعتبره فعلاً دنيئاً أن يجهز على الجرحى. مما دفع بالقائد التركي أن يشهر مسدسه بوجه أبو علي كايد يريد اطلاق النار عليه لولا تدخل الضابط الألماني المرافق للقوات العثمانية والذي أعجب بشخص أبو علي كايد وهيئته الرجولية. فقد قال بلغته الألمانية الشديدة: لا ... لا ... هذا رجل يعرف كيف يقاتل.

كانت السيارات الثلاث تغادر القرية عصر ذلك اليوم. وقد خرجت منها الأيدي البيضاء تلوّح مودعة. كذلك خرجت طاقيات الرجال تلوّح. مودعة الجماهير بعد حفلة غداءٍ دسمة في قرية الصوانة.

- هل هم أغنياء يا سعادة الحاكم.؟.. حتى يسرفوا بالطعام والضيافة في هذا الشكل؟

- لا.. ليسوا أغنياء. انما هكذا هي طبيعة الشرقيين الإسراف الزائد. وعدم الدقة في تقدير الأشياء.

- لكن ينبغي أن يكون هناك توجيه. بحيث تسخّر هذه الموارد للتنمية.

- هذه هي عاداتهم. ونحن لا مصلحة لنا بتغييرها. ثم إنهم إذا استمروا في ذلك. ربما يكون أفضل لنا. فهم يتلهّون في أمورهم الخاصة... منافساتهم... مبارياتهم... هدر أموالهم بدافع الكرم.. ثم يضيف، هذه الأمور لا تعنينا. المهم ألا يحملوا السلاح بوجهنا.

في صباح اليوم التالي لزيارة الحاكم. كان خمسة رجال يقومون بتحميل الحجر الذي طلبه على ظهر جمل بينما كان أبو علي كايد يردد ساخطاً:

- هذا الذي استفدناه من زيارة سعادة الحاكم. الله يلعنه ... ويلعن زيارته.

راح صقر يهوّن عن أبو علي كايد.

- بسيطة يا أبو علي. بتفرج، يبقى نصيبك أهون من نصيب الذين يحبسهم الحاكم ويجبرهم على تكسير الحصى تحت حرارة الشمس.

- ٤ -

- يا أبو نايف دعنا نزوج نايف قبل أن يحصل شيء يشغل البال.
- هل يوجد عروس معينة بذهنك؟
- نعم سلمى بنت سعيد الحسن.
- ماذا ... ماذا ... قلت؟ ... ألم تجدي غير بنت سعيد الحسن..؟ .. هذا كلب لبيت السالم. ثم انهم هم الذين فسخوا الخطبة وزوجوا ابنتهم لغير ابننا بعدما كسرنا نفسنا لهم وخطبنا ابنتهم لإبننا. ثم هي الآن مطلقة. والمطلقة ليست مثل البكر.
- البنت مليحة يا أبو نايف. وأمها مليحة. وبعدين الولد متعلق فيها. وهي تركت زوجها لأجله.
- مختصر الكلام: يقول لي نايف أية بنت يريد من بنات الجبل، وأنا جاهز لأخطبها له. بس يبعد عن هالجماعة لا يجعلنا نتعب رأسنا.

طأطأت أم نايف رأسها انكساراً وخرجت من المضافة. خالية الوفاض، فلم تستطع أن تنتزع موافقة زوجها على زواج ابنها نايف من البنت التي أحبها.

كانت سلمى تعرف نايف من قبل. أو بالأحرى لاتهتم له. أما هو فكان يسمع أن لدى سعيد الحسن ابنة جميلة يحاول الكثيرون من الشباب أن يتقدم لخطبتها.

وحـدث أن كـان مـاراً في شـارع القريـة ذات يـوم إذ صـادف فتـاتين عائـدتين وهمـا تحمـلان جـرتين مـن المـاء علـى كتفهمـا توقفـت احـداهما وسلمت على نايف. أما الأخرى وهي سلمى فقد تابعت سيرها.

- توقفي يا سلمى ... ألا تريدين أن تسلمي على نايف؟ هذا نايف ابن جيراننا.

توقفت سلمى واستدارت لتنظر في وجه الشاب. تقدم نايف نحوهما مسلماً.

- مرحباً يا صبية.
- أهلاً ... ردت بابتسامة عذبة.
- أنت بنت سعيد الحسن.؟
- نعم
- صحيح مثل ما سمعت...!
- ماذا سمعت..؟
- سمعت عنك .. سبحان الخلاق الذي صنع جمالك.

ضحكت واستدارت ماشية وهي تنادي على رفيقتها.

- يا الله يا سمية ... عجّلي .. نايف ابن جيرانكم يخيفني.
- أنا أخيف الوحوش بس. أما الغزلان فلا.
- عارض أبو نايف الخطبة بسبب سوء العلاقات بين العائلتين حيث أن عائلة الحسن ترتبط مع آل السالم بعلاقة وثيقة وتكون غالباً معارضة لتوجهات آل الظاهر.

- هذا ليس له علاقة يا والدي بالعلاقات المتعلقة بشؤون القرية، سواء كان أبوها كلب لآل السالم كما تقول أم لا.. أنا لا أريد أن أتزوج أباها.

أنا يهمني البنت فقط، ثم إن ذلك ماذا سيؤثر في المستقبل لن يتغير من الأمر شيء. كل ما هناك أن البنت مليحة.

ثم نحن وإياهم نبقى أهل قرية واحدة، لا نستطيع أن نتخاصم بشكل قاطع، بل تبقى العلاقات بيننا موجودة بشكل من الأشكال. والمطلوب منك فقط أن تذهب وتخطبها لي بصفتك والدي. لأن العادات والتقاليد تتطلب ذلك. وافق أبو نايف على خطبة ابنة سعيد الحسن لابنه وذهب بمعية الشيخ مصطفى وبعض الرجال إلى بيت سعيد الحسن، الذي كان بدوره قد دعا بعض الرجال من بينهم ماجد السالم وشقيقه صقر. حيث تم الثناء على الخطيبين وقراءة الفاتحة.

نايف شاب جيد. ويستحق كل خير. قال صقر معلقاً. لم يكن حظ نايف موفقاً في الخطبة، فلم تمض أيام قليلة حتى كان مطلوباً للجندية مع من جند في ذلك الوقت. إن الحروب التي دخلتها الدولة التركية فتحت فاها وهي تطلب الكثير من الجنود الذين تم اقتلاعهم من أرضهم وبيوتهم ومن بين أحضان نسائهم ومن أمام أطفالهم كي يساهموا في الحرب التي خطط لها بعيداً عن هذه البلاد.

لم ينفرد بخطيبته في أي وقت، إلا في تلك الليلة التي ذهب بها إلى بيت خطيبته يودعهم.

بكت طويلاً. وتجهم وجه أبيها سعيد الحسن. وأمها أيضاً بكت. سهر قليلاً عندهم ثم ودعهم وخرج من البيت لأول مرة يسمح لها أبوها أن تخرج

كي تودع نايف خارجاً. وقف عند بوابة الدار الخارجية في الظلمة. كان الهواء يلسع الوجه ببرودته الليلية. أمسك يدها. ارتجفت قليلاً. أحس بالدموع تنزل من عينيها وشهقات خافتة تصدر عنها. ضمها إلى صدره. لامست وجنته وجنتها. أحس برطوبة دموع عينيها. قبلها على شفتيها قبلة طويلة حارة.

سحبت نفسها من بين يديه ووضعت في كفه شيئاً ومضت عائدة إلى البيت.

وعندما طالت غيبة نايف عدة سنوات ولم يتبين أحيّ هو أم ميت تقدم لخطبة سلمى أكثر من شخص.

وافقت سلمى على فك خطوبتها من نايف وقبول خطيب آخر، أمها كانت تحاول أن تكسر مقاومتها.

- يا بنتي: نايف راح ولا يعرف أحد إذا كان يرجع أم لا: وها قد مضى على غيبته أكثر من ثلاث سنوات ولم يعرف أحد عنه شيئاً.

- يا أمي أنا مخطوبة لنايف ولا أتركه حتى يأتيني خبر وفاته.

- لكن يا بنتي يمكن يطوّل، هذا إذا رجع، وأنت لا يجوز أن تبقي هكذا بلا زواج .. اليوم أتى جدعان الحامد وطلبك لابنه رشيد. وهو شاب وحيد لأهله وترتاحين معه وبعدين كله قسمة ونصيب.

سقطت دمعتان على خدي سلمى:

دمعة حب. ودمعة غضب.

دمعتان ضعيفتان وهادئتان وصاخبتان.

أين أنت يا نايف؟ لماذا ربطتني بنفسك بهذا الرباط؟ ثم تواريت..؟

في أي بلد أنت؟ أحي أنت أم ميت؟

لـن أكـون لغـيرك. حتـى وإن كنـت رغـم ارادتـي فبالجـسد فقـط. أمـا الروح فهي باقية لك.

أحس رشيد بعد زواجه من سلمى أنه لم يستطع أن يمتلك قلبها ، فهي جامدة. كامدة. ووجهها الأبيض الصافي لا تتغير تعبيراته كثيراً تجاهه. فسلمى زوجة مطيعة لكنها لا تحبه. وتلوذ بالصمت في أغلب الأحيان.

أحب رشيد سلمى، لكنها لم تبادله الحب. حلم أن تحبه هي أيضاً وأن تنسى خطيبها السابق. وفي هذه الحالة فإنه لا يحسد أحداً من شباب القرية على هناءته في حياته الزوجية. لكن للأسف لم يتم له ذلك. فحب سلمى لنايف لم يمحه زواجها من غيره، ولم يستطع هو أن يحل محل نايف في قلب سلمى.

أحس بالغضب والحسد من نايف وتمنى أن يأتي خبر وفاته حتى يرى سلمى تتألم ، لقد خالط حبّه لسلمى شيء من حب الإنتقام منها لأنها لم تشعره بالدفء والحنان الزوجي فأيام الندى الذي يعطر فراشيهما قليلة. وندم لأنه سمح لنفسه أن يساق وراء رغبته في امتلاك جمالها واستغلاله فرصة غياب نايف عن القرية ، وتمنى لو أنه لم يفكر بالزواج منها وتزوج من امرأة أخرى تبادله شعوره وتشعره بكرامته وقيمته كزوج، ربما كان أفضل له. خاصة أن سلمى لم تنجب له أولاداً وكان ذلك يزيد من غضبه منها. لأنه كان يحس أنها مسرورة لأنها لم تنجب له أولاداً. وبالأحرى انها تحاول أن تغضبه أكثر في هذا الأمر ولا تحسب لرغبته حساباً. أو أن تحاول الانجاب مثل باقي النساء كي ترضي زوجها.

حين سمع أهل القرية الحداء القادم من غربي القرية. علموا أن نايف قد عاد بعد سنوات من الغياب في الجندية.

علت الزغاريد في بيت أبو نايف احتفاءً بعودته.

رأى رشيد بريقاً لامعاً في عيني سلمى، وعندما نظر إليها تحاشته، فقال لها:

- هل سمعت شيئاً؟
- سمعت ماذا؟
- قالوا أن نايف الظاهر قد عاد.

لاذت بالصمت.

في الليل عاد رشيد إلى بيته بعد سهرة قصيرة فوجد سلمى قد نامت باكراً. حاول أن يوقظها. فقد كان يبدو عليها أنها لم تغف بعد. لكنها تفضل أن تبقى وحدها. تركها ووضع فراشاً آخر لنفسه ونام.

في اليوم التالي تحاشته بنظراتها. وفي الليل وضعت فراشها على حدة ونامت.

عندما عاد رشيد رآها قد نامت دون أن تكلمه أو ترى ماذا يريد. أيقظها.

- سلمى .... سلمى.
- ردت عليه دون أن تلتفت له ... نعم ماذا تريد؟
- انهضي. أريد أن أتحدث معك.
- بماذا نتحدث؟
- بشأن عودة نايف. لماذا تغيّرتِ؟
- أنا لم أتغيّر.
- أتحسبي أنني لم ألحظ ذلك؟ منذ أن عاد نايف وأنت تتجنبينني ولا تريدين أن تتحدثي معي.

- عندها ، قالت له بتصميم:

- اسمع يا رشيد ، الذي دفعته مهر لي مازال موجوداً ومحفوظاً بصرة ودعك أنت بحالك وأنا بحالي. أحسن.

- ماذا .. ماذا قلت ..؟ نجوم السما أقرب لك. لا تفتكري إني أطلقك وأدعك تتزوجين نايف.



- نايف...؟

- نعم ياسلمى..؟

- لا أستطيع أن أراك. دعني أتحسس وجهك. هكذا قدرنا.

- لا أستطيع أن أراك إلا في العتمة بعد سنوات من توديعك تلك الليلة دون أن أرى عينيك. أو حتى وجهك.

- لقد تغيرت يا نايف.

- مازلت أنا ياسلمى لم أتغير. وهذا منديلك معي. مازلت محتفظاً به.

- بكت سلمى وارتمت على كتف نايف.

- كان منديلك لا يغادر صدري خلال السنوات التي قضيتها في الغربة ألمس الأنس فيه وأشم عبره رائحة بلادنا ، حتى في اللحظات الخطرة والحرجة. في تلك الأيام العصيبة التي ينقطع فيها خيط الرجاء. كان منديلك يبعث في نفسي الأمل بالعودة إلى الوطن.

- أنا متزوجة يا نايف. اذهب قبل أن يرانا أحد.

أحم. أحم... من هناك؟ صاح أبو رشيد جدعان الحامد في هدأة الليل. بينما كان شبحان يتهامسان قرب بوابة الدار الخارجية. لاذ أحدهما بداخلها ، بينما سمعت وقع خطوات الشبح الآخر وقفزاته من فوق جدار الحوش وقد أجفلت البقرات منه.

- دير بالك على مرتك يا رشيد.
- ماذا هناك يا والدي؟
- لاشيء. لكن هكذا أقول لك...!

كثرت مشاجرات سلمى مع رشيد وسمع بها الجيران وتدخلوا بالواسطة أكثر من مرة لإصلاح ذات البين.

قال جدعان الحامد لابنه ذات يوم.

- اترك سلمى بحالها يا رشيد... طلّقها أحسن لك.

التهديد ما نفع معها. لا منك. ولا من أبوها. اتركها بحال سبيلها ودوّر لك على زوجة غيرها. سلمى ليست لك.

بعد مدة كان جدعان الحامد عند سعيد الحسن والد سلمى يتحدثان.

- يا أبو حسن. نحن أصدقاء. ولا نريد أن يتدخل أحد بيننا.

ابنتك سلمى لم تعد تطيق الولد. والخلاف بينهما على طول واستمرارهما مع بعضهما البعض أمر صعب. دعنا نحلّ الموضوع بيننا بالمعروف.

- إذا كان مرادها أن تتزوج نايف الظاهر. هذا بعيد كثيراً عن مرادها. أنا أصلاً لا أطيق عائلة الظاهر بالكامل وإذا حصل وطلقت سلمى وقعدت بالبيت. فإني أحرّم عليها الخروج منه.

- ٥ -

كان رشيد يتميز من الغيظ. وعدم حب سلمى له يعتبر سبباً كافياً لاغضابه. لكن الذي يغضبه أكثر. هو أن الناس يعلمون أن سلمى تركته من أجل نايف الظاهر. وهي ستتزوجه عاجلاً أم آجلاً. ولو أنها ستتزوج شخصاً آخر من خارج القرية. ربما كان الموقف أبسط من ذلك كثيراً. أما أن تتزوج في القرية ومن شخص آخر فهذا الأمر يولد لديه شعوراً بالإهانة والحط من رجولته وقدرته.

ذات يوم قدم مسعود الحسون إلى عند رشيد. فوجده مهموماً.

- مالك يا رشيد؟
- لا شيء يا أبو سعد.
- واضح عليك إنك متضايق. والذي يضايقك يضايقني.
- ماذا تقصد يا أبو سعد.
- الذي أقصده. اننا في الليل سنمر أنا ونايف من جهة البركة الشمالية. واحدنا قبل الآخر. وأنت تقوم بدورك. ولا مين شاف. ولا مين دري. وبذلك فإنك تشفي غليلك.



في اليوم التالي كان مسعود الحسون يخبر نايف أنه سيأتيه ضيوف في المساء من خارج القرية. وهو قد دعا بعض الأشخاص فقط وهو من بينهم.

لم تثر دعوة مسعود الحسون لنايف شكوكاً عميقة لديه. حيث أن مسعود الحسون يحتفظ بعلاقات مع آل الظاهر أيضاً توحيها مصالحه التي تطغى على الشعور بالكراهية الدفينة في نفسه.

لبس نايف ثيابه واتجه إلى بيت مسعود الحسون بعد مغيب الشمس كي يسهر. حاذر أن يمر من أمام بيت رشيد الحامد لسبب ما. دار حول المكان ومرّ في زقاق آخر يبعد عن بيت رشيد الحامد.

سمع جلبة تصدر من زاوية الزقاق. نظر فشاهد ظلاً لشبحين قرب جدار أحد المنازل المتهدمة ، ميّز كلمتين من الكلام الذي تهامس به الشبحان.

- خايف أن لا يكون نايف...؟

- هذا نايف .... طخّ ... بسرعة.

- كالشهب. انطلقت رصاصتان في عتمة الليل باتجاه نايف بوو ... بوو ... تلاه وقع أقدام رجلان يركضان بعيداً عن المكان.

كان حظ نايف جيداً. حيث أن الرصاصتين لم تصيباه بل استقرت احداهما في الجدار الذي كان نايف يمر قربه وانتثر فتات الحجر على رقبته وكتفه. ونجا بإعجوبة من الكمين. ولو سار نايف على الطريق المعتاد الذي يصل إلى بيت مسعود الحسون. ربما كانت إصابته مؤكدة. والشيء الذي خدمه هو تغيير الطريق. عندما تفاجأ به الرجلان اللذان يكمنان له أتى من طريق آخر. فارتبكا ثم أطلقا النار من غير روية أو تسديد صحيح.

تابع نايف طريقه إلى بيت مسعود الحسون. كان البيت معتماً. نادى عليه إلا أن أحداً لم يرد.

علم ساعتئذ أنه كان ضحية كمين نصب له واشترك به مسعود الحسون. لكن من هو الرجل الآخر؟ بل ما هي مصلحة مسعود الحسون في قتله؟ حتى يقوم بهذه المؤامرة الدنيئة؟ ويقوده إلى كمينٍ بالاتفاق مع شخص أو أشخاص آخرين...؟

كانت محاولة قتل نايف سبباً لزيادة حدة التوتر في القرية. خاصة بين عائلتي الظاهر وآل السالم المتخاصمتين تقليدياً.

اتهم آل الظاهر آل السالم بمحاولة الإغتيال. كما اتجهت الشكوك إلى رشيد زوج سلمى السابق. حيث تم استدعاء مسعود الحسون إلى اجتماع حَضَرَهُ من جهة آل السالم ماجد وأبو علي كايد السالم ومن عائلة الظاهر الشيخ أبو نايف محمود والشيخ مصطفى.

أنكر مسعود الحسون علاقته بمحاولة الإغتيال. كما نفى أنه استدرج نايف إلى كمين منصوب له. وعندما سئل عن سبب دعوة نايف إلى سهرة مزيفة. لا يوجد به ضيوف ولا شيء آخر أجاب:

إنه دعاه دعوة حقيقية كي يسهر عنده. وإنما الضيوف الذين وعدوه أن يأتوا لم يأتوا لسببٍ خاص بهم. وإذا ما صادف أن أحد الأشخاص قد أطلق النار على نايف. فإنه لا يدري شيئاً وليس له علاقة بالأمر، خاصة أن نايف له العديد من الخصوم. قال ذلك غامزاً من قناة خطيبته السابقة.

أنكر آل السالم بدورهم محاولة الإغتيال وأدانوها واعتبرها ماجد السالم عملاً جباناً. يهدف إلى توتير العلاقات بين العائلتين قائلاً:

نعم حتى لو كنا مختلفين. فنحن نختلف على المصلحة العامة لكن هذا العمل لا يقوم به أناس شرفاء. ثم أن نايف شاب جيد. وهو من خيرة شباب القرية. ولا نسمح لأحد أن يقوم بعمل كهذا ضده.

طوي موضوع محاولة قتل نايف الظاهر لعدم التحقق من الأشخاص الذين يقفون وراءه. لكنه ألقى ظلالاً من الحذر على جو القرية.

تلك القرية التي تتسم علاقاتها بالبساطة والصدق حتى خلال فترات النزاع والاختلاف.

إلا أن شعوراً بالقلق يزداد. لأن عملاً شائناً يحدث في مكانٍ ما. ولا يعرف من يقوم به. أو ما هي دوافعه. الأمر الذي يدفع للخوف. أن ثمة من يرتب أمراً في الظلام. وهو مستعد للقتل ولاقتراف جرائم أخرى دون أن يصرّح عن شخصيته. وبالتالي فإن قلقاً باطنياً ينتاب الناس الطيبين بأن الشر يقبع في مكان ما وسط الظلام. وهذه مشكلة الخير والشر. إذ يعيش الخير في الضوء والشر في الظلام. أحدهما يرى الآخر والثاني لا يراه.

كانت سلمى متلهفة لرؤية نايف وهي مستعدة للمجازفة بأن تذهب معه خطيفة. ويدخلان عند أحد الوجهاء الذي يقوم بدوره بالواسطة ويحاول حل الموضوع. إلا أن نايف لم يقبل عندما أتته رسالة من سلمى تخبره فيها عن استعدادها للذهاب معه خطيفة. وتابع نايف العمل الذي يمكّنه من الحصول على خطيبته السابقة دون ارتكاب حماقات تكون نتائجها خطيرة.

قالت أم سلمى ذات يوم لزوجها:

- يا أبو حسن. البنت قد طلقت. وهي قاعدة في البيت وزوجها السابق قد تزوج ونسي الموضوع.

لماذا أنت راكب رأسك. ولا تقبل أن تزوجها من نايف الظاهر؟... هل السبب كي ترضي آل السالم...؟ ثم أن الأمر ليس مستغرباً.

هي ليست أول بنت تطلق ولا هي آخر بنت. ثم أن نايف كان خطيبها من قبل. ونحن الذين بطّلنا عنه ولقمتها انقطعت من عند رشيد ابن جدعان... إذا كنت تؤمن بالقسمة والنصيب..؟

أبو حاتم رجل لكل الصعاب. وطلبه لا يرد. قال ذات يوم لنايف:

- لا يهمك يا نايف. أنا غداً سأذهب وأتحدث مع والدها. وأنت تعرف عمك أبو حاتم. خذها من هذا الشارب. ومسك بيده على شاربه. وهذه يلزمها خاروف.

- بس خاروف واحد فقط ... خاروفان اثنان. عشرة. أجاب نايف مهللاً.

في اليوم التالي كان أبو حاتم يضع فنجان القهوة الذي ناوله إياه سعيد الحسن أمامه دون أن يشربه. نظر سعيد الحسن إلى أبو حاتم، فرآه لم يشرب الفنجان، فعلم أن له طلباً معيناً فقال له:

- خير إن شاء الله يا أبو حاتم..؟ اشرب قهوتك. بشرط.

- كفى الله شرك. ماذا تريد..؟

- ابنتك سلمى يا أبو حسن لنايف الظاهر.

سكت سعيد الحسن لحظات. متفكراً ثم قال:

- بهونها الله يا أبو حاتم. لوقتها يفرجها الله. اشرب قهوتك الآن.

- أريد جواباً صريحاً يا أبو حسن. وإلا فإنني لن أشرب القهوة. وسيكون لي موقف آخر إذا لم تلب طلبي.

- ابشر يا أبو حاتم. ابشر ... أنا قلت لك ابشر. لكن أنت تعرف الأصول. لماذا لم يأت أبو نايف ويطلب البنت لابنه..؟ ألا يتنازل ويأتي لعندنا؟.

- سيأتي. لكن أنت قل إنك موافق وكل شيء سيتم كما تريد.

- على بركة الله.

ومد أبو حاتم يده إلى فنجان القهوة وشربه.



هكذا أحسن يا سلمى. قال نايف ليلة زواجه من سلمى الحسن. الزواج أمام الناس. وهذا من حقنا من قبل.

ابتسمت له وخفضت عينيها ضاحكة وقالت:

- صحيح. لكن أنا لم يكن عندي صبر أراك تتعذب ولا أستطيع أن أتحدث معك.

- تعلمين..؟ عندما كنت في السفربرلك. كان يراودني شعور إنني لن أعود إلى بلدي. ولن أراك ثانية. فالمسافة طويلة. وكل من حولي بعيد كل البعد عنك وعن أهلي وقريتي. وأوامر القادة الغلاظ. ودناءة نفوس البعض تظهر في الحرب بشكل مقرف، الأمر الذي يزيد غربة الإنسان. ويلقي على أفكاره الإنسانية ظلالاً ضبابية. وشيئاً فشيئاً يصبح الإنسان جزءاً من التشكيلة الاجتماعية التي صنعتها الحرب. تلك الحرب. التي

تتطلب الاستعداد لمواصلة القتال وتنفيذ أوامر السادة الضباط دون نقاش. إلا أن منديلك كان صلة الوصل الوحيدة تقريباً الذي كان يعيد إلي الأمل ويردني إلى إنسانيتي. وحدث مرة أن وقع في يد أحد الضباط الذي أعجب به. ولم يعده إليّ إلا بعد أن دفعت إليه خمسة مجيديات.

مسحت على وجهه بيدها. وحملت يده ووضعتها على خدها وضغطت عليها. كانت اليد حارة. وخدها يشع دفئاً. نظر إليها بتنورتها المخمل الخمرية اللون. وغوازي الذهب المصطفة فوق جبينها ، حتى لكأنها زرعت زرعاً.

عكس ضوء المصباح الزيتي المعلق على الجدار لون وجنتيها. فبدتا حمراوين. راقت له .. اشتاق إليها بشغف. نزع لباس رأسه وقال لها.

- تعالي.

ضحكت مجدداً وقالت بغنج.

- أطفىء الضوء أولاً.

وبنفخةٍ واحدة مال على المصباح ونفخ أف....

- ٦ -

قال ماجد السالم. ذات يوم غاضباً لجلسائه في المضافة:

الا يوجد واحد أخو أخته يخلّصنا من معلم المدرسة الفلتان الذي لا أدب عنده... ولا شرف... قاعد جاسوس بالقرية. وفوق هذا ، إنه يبقى سكراناً وداير بالشوارع بالليل.

- اتركه لي. قال أبو حاتم.

- أنت لا تتدخل يا أبو حاتم. أنت تحلّ الأمور على طريقة الكسارة. لا نريد أن نفتح مشكلة مع الفرنسيين في هذا الوقت. هذا المعلم زلمتهم.

- لا يهمك يا أبو قاسم. إذا حصل أي شيء أنتم ليس لكم علاقة.

في الليل كان أبو حاتم مرابطاً في زاوية أحد الشوارع عندما مرّ معلم المدرسة الفرنسي الأصل وهو يدندن بأغنية فرنسية وقد علق بندقية على كتفه. كانت حركاته تنم عن السكر الشديد. فهو يسير بقميص مفتوح الأزرار ويدحرج برجله إحدى العلب المعدنية الفارغة يصدر عنها صوت في هدأة الليل فيعكّر صفو السكون المخيم على الشارع. برز له أبو حاتم.... جفل المعلم وتناول بندقيته عن كتفه يريد تلقيمها. إلا أن أبو حاتم قفز عليه ونزع البندقية من يده بشدة. وبضربة واحدة قوية انهالت على رقبته كانت كافية لأن توقعه أرضاً.

ربض أبو حاتم على صدره وأخذ يضغط على عنقه بيديه الكبيرتين والمعلم يخبط برجليه وهو يحشرج يكاد أن يختنق.

- يكفي يا أبو حاتم... يكفي... لا تقتله. وأمسكت يد أبو حاتم من كتفه ورفعته عن المعلم.

- يا الله .. امشي .. قبل أن يرانا أحد.

كان ذلك ماجد السالم. الذي خمّن أن أبو حاتم يمكن أن يرتكب غلطة ما. ويجرّ القرية إلى مشكلة مع الفرنسيين لم يحن وقتها بعد.

لكن أحد الرعاة. الذي كان عابراً بالصدفة من مكان الحادث، أخبر الفرنسيين بأن الذي حاول قتل المعلم الفرنسي هو أبو حاتم.

ألقي القبض على أبو حاتم وقرر آمر النقطة العسكرية المعسكرة في كرم الزيتون إعدامه رمياً بالرصاص.

لكن ماجد السالم بذل مساعيه لدى السلطات بأن وافقت على استبدال الحكم بالإعدام إلى النفي من القرية. وكانت أسباب هذا التخفيف. أن دبيب الثورة كان يزحف كدبيب النمل تحت أرجل الفرنسيين. وأن الحكمة تقتضي عدم زيادة التململ الحاصل في الجبل ضد وجودهم. خاصة وأنهم يحاولون أن يبقى التمرد الحاصل في بعض المناطق محصوراً بها. وأن لا يمتد ليشمل مختلف المناطق الأخرى في الجبل.

قال ماجد السالم لأبو حاتم عندما زاره في السجن لإخباره بإطلاق سراحه. قاصداً اختبار شجاعته.

- ولك يا أبو حاتم. لماذا فعلت ذلك؟ لمن ستترك زوجتك وأولادك؟ سيعدمونك، قل ماذا توصي؟

أجاب أبو حاتم رافعاً رأسه.

- أريد عندما يسوقونني للإعدام. أن أمرّ أمام العساكر حتى أتمكن أن أضرب أيَ واحدٍ منهم وأثأر لنفسي قبل أن يعدمونني.

وأريد أن لا يبقى هذا المعلم الفاسد في قرية الصوانة، كما أتمنى من الله أن يكسر علم فرنسا في هذا البلد.

طبطب ماجد السالم على كتف أبو حاتم، وقال ضاحكاً:

- هكذا تكون الرجال يا أبو حاتم.... نجحنا بإطلاق سراحك. لكن دير بالك... الشغلة قرّبت تنفجر.

بعد ذلك الحادث سافر المعلم الفرنسي من قرية الصوانة الذي يلقبه أهل القرية باسم جاسوس إلى بلده فرنسا، ومن هناك بعث برسالة إلى قرية الصوانة يقول فيها:

- كانت ثلاثة أشياء تزعجني في جبل الدروز.

أولاً: عدم قدرتي على شرب الخمرة في أي وقت أريده.

ثانياً: ماجد السالم الذي كان يعتبر نفسه أكبر من الحاكم ذاته.

ثالثاً: أبو حاتم!

قرأ بعض شبان القرية المتعلمين الرسالة. حيث أن أبو حاتم لا يعرف القراءة ولا الكتابة. وقاموا بالرد عليها حيث كتبوا:

- إن ماجد السالم منعك أن تدخل إلى بيوت الصوانة، لكن أبو حاتم منعك أن تدخل إلى سورية كلها.

- ٧ -

عاد صقر من السويداء مع أبو ناصر المزيد. شاعر القرية. ونقلا أخبار التململ الذي أخذ يدب في أنحاء الجبل المختلفة. وانتشار روح الثورة في كل الأماكن. وشرحا كيف أن الفرنسيين يطبقون على المدينة من كل جانب بدباباتهم وقطعاتهم العسكرية. وكيف أن السلطات الفرنسية متوترة الأعصاب. حيث تقوم باعتقال كل من يقدم إلى المدينة دون تصريح منها. وتقوم بزجه بالسجن أو في مستودع الفحم. إمعاناً في الإذلال والاهانة، وذكرا بعض أسماء أعيان الجبل الذين تمت إهانتهم بهذه الصورة الحمقاء.

قال صقر متذمراً:

- العمى بعيونهم، صرنا أسرى في بلادنا... حتى أننا لا نستطيع أن نذهب إلى السويداء. إلا بتصريح رسمي من الحاكم! إلى متى سنبقى ساكتين صابرين على تصرفاتهم واستبدادهم بالبلاد وأهلها..؟

- طوّل بالك يا أبو فهد... قال أبو ناصر المزيد. وهو شاعر معروف. ثم أعقب ببيت من الشعر

لا بد من ليلة يلعلع فيها حداها آخر الربيع لما يبان صيفها من شتاها

كما تشعر الكثير من الكائنات. بقرب حدوث زلزال ما أو هيجان بركان. وذلك عن طريق جهاز انذار بيولوجي صممه لها الله يصعب فهمه أو معرفة مداه، كذلك كان الناس في تلك الأيام يشعرون شعوراً خاصاً. بقرب حدوث انفجار كبير.

انفجار عام. يشمل الجميع. يقلب الكثير من الأشياء. ويبدل مصائر العديد من الناس.

كانت الغيوم عند غروب الشمس. تصطبغ بحمرة قانية. الأمر الذي يجعل أم نايف تتخوف وهي تنظر إلى غروب الشمس وقد تملكها الخوف وهي تشير إلى جرار الغيوم.

- الله يستر يا نايف... الغيم أحمر. على لون الدم.

- لا تخافي يا أمي. هذا مجرد وهم. ليس هناك علاقة بلون الغيم وحوادث الناس أو الزمان.

- لا .. لا... يا نايف، قبل حملة سامي باشا على الجبل كانت الغيوم تصطبغ في المساء باللون الأحمر لمدة عشرة أيام وهذا يدل على حدوث حروب تسيل فيها الدماء.

عبثاً حاول نايف أن يزيل الاعتقاد الموجود في ذهن أمه بأن خوفها من لون الغيم المحمر هو عبارة عن وهم ولا أساس له من الصحة. إلا أن الأم كان اعتقادها عميقاً وبالتالي ارتدى مزاجها طابعاً تشاؤمياً عابساً.

حتى يا أمي لو حدثت حروب وسالت فيها الدماء كما تقولين فهذا ليس له علاقة بالأمر. واللون الأحمر هو انعكاس لضوء الشمس المتلاشي وراء الأفق. على قطع الغيم المعلقة في الهواء. وليس له علاقة بمصائر الناس وحروبهم بين بعضهم البعض.

الفصل الثاني

- ١ -

أتـى صـيف عـام ١٩٢٥ سـريعاً. بعـد ربيـع قـصير باهـت. وشـتاءٍ قليـل الأمطـار. أنبتـت مزروعـات قزمـة. وظهـرت ورود خجولـة. سـرعان مـا ذبلـت وانمحت عن وجه الأرض. وييبس الزرع قبل نضجه لقلة المطر فظهرت الأرض بلونها الداكن. وتشققاتها العميقة بفعل العطش. كان منظرهـا يبعث على السأم والضجر في النفس، حتى أن الـوادي المسمى وادي الـذهب لم يجـر في تلك السنة إلا قليلاً. لم يتمكن أهل القرية من ملء برك المياه من الـوادي إلا بالـشيء القليـل، حتـى أن البركـة الـشمالية وهـي أكـبر بركـة في القريـة ويخـصص ماؤهـا للـشرب والاسـتخدامات الأخـرى. لم يـصلها مـاء الـوادي، فبقيت فارغة. إلا من بعض مستنقعات المياه الضحلة في أرضها وقد امتلأت بحشائش خضراء. تغطي وجه الماء. الأمر الذي سمح لبعض الضفادع القليلة العـدد أن تعـيش في أرض البركـة، في تلـك المـستنقعات. قـافزة مـن الوحـول الموجـودة في أرض البركـة إلى حيـث الميـاه. وهـي بالكـاد تحـاول غطـس رؤوسـها في الميـاه الـضحلة محاولـة الـسباحة. ممارسـة غريزتهـا الطبيعيـة في السباحة والتنعم بالقفز إلى الماء.

وغاب عن تلك البركة نقيق الضفادع القوي المتناغم مع بعضه البعض. الذي يملأ المكان عادة في الليل.

وق ..... وق.......... وق............

ارتفع سعر القمح والشعير في تلك السنة إلى ثلاثة أضعاف. وارتفع سعر التبن. وتوقفت القوافل الذاهبة إلى دمشق إلا البعض منها. فلا يوجد ما يبادلونه به. وأصبح هم الناس تأمين المؤونة خلال السنة.



وردت أخبار معركة الكفر عصر يومٍ تموزي حار إلى قرية الصوانة وشرح ناقل الخبر. كيف أن الحملة التي توجهت للقضاء على الثوار في المنطقة الجنوبية، قد تم إبادتها بالكامل من قبل الثوار. وكيف أن الفرنسيين الموجودين في السويداء قد حوصروا في القلعة.

تم تسليم كتابين بعث بهما المنصور إلى ماجد السالم ومحمود الظاهر. يخبرهما عن المعركة التي حصت ويطلب الاستعداد من جميع الفرسان والمقاتلين للجهاد والنهوض بالسلاح ضد الوجود الفرنسي.

في المساء، شوهدت نارٌ عظيمة ترتفع فوق قمتين من قمم الجبل الشرقي. أثار مشاهدتها هيجاناَ في قرية الصوانة.

فالحرب أعلنت. والنداء ظهر. ولا مجال للتقاعس أو المناقشة.

أخذ الفرسان يروحون ويجيئون بين مضافتي ماجد السالم ومحمود الظاهر.

سأل الشيخ أبو نايف محمود الظاهر الشيخ مصطفى.

- مارأيك بكتاب المنصور يا شيخ مصطفى؟ ثم أضاف متسائلاً. هل نستطيع أن نقوم بالحمل دون مساعدة..؟

المؤمن الديان شجاع غير جبان يا أبو نايف. أجاب الشيخ مصطفى. ثم يتابع بصورة الواعظ.

الإنسان إذا تخلى عن الطبائع الضدية. مثل الطمع والخوف وكان مطمئناً بأن قسمته في الحياة حاصلة. شاء أم أبى فإنه يغدو شجاعاً لا يخاف من المستقبل.

نعم .ياشيخ مصطفى. يجب أن ننهض جميعاً ضد الفرنسيين الذين ربضوا على صدورنا. وأساؤوا إلى كرامتنا حتى أصبحنا سجناء في بلادنا.

أنا ذاهب إلى بيت ماجد السالم يابا... حتى يكون رأينا مشترك. قال نايف لوالده في مضافة ماجد السالم كان يجتمع عدد من رجال القرية يتداولون في الأمر.

ماهو رأيك يا أبو قاسم؟

- رأيي أن يذهب بعض الفرسان إلى السويداء غداً. كي يبلغوا المنصور إننا جاهزون وعلى استعداد لكل أمر. فالكيل طفح. والصبر نفذ يارجال.

في صباح اليوم التالي. كان صقر السالم وأبو مزيد الشاعر ونايف الظاهر. متجهين على خيولهم إلى السويداء.

لفت نظرهم أن النقطة العسكرية الفرنسية المتمركزة في كرم الزيتون. قد أخلت موقعها في الليل. ولم يعد موجوداً إلا آثار خيامها وبقايا سور معسكرها الذي كانت تقيم فيه.

في الطريق الوعرة التي سار فيها الفرسان. كانت الخيول تسير بمحاذاة الصخور ورجوم الحجارة المنتشرة على جانبي الطريق. مختفية في أرض سهلية حيناً. وصاعدة هضبة عالية حيناً آخر مقتربين من السويداء.

كانت أعين الرجال تراقب الفضاء علّها تشاهد الطائرات التي التقطت آذانهم أصوات محركاتها.

ظهـرت الطـائرات عـن بعـد متجهـة إلى الـسويداء. تطـير بهـدوء كاليعاسيب الصغيرة.

توقـف الرجـال. ولاذوا بخيـولهم خلـف رجـوم الحجـارة الـضخمة إلى أن شاهدوا الطـائرات قـد دارت حـول المدينـة ورمـت شـيئاً فـوق قلعتهـا. ثـم دارت من جديد وعادت أدراجها متجهة إلى الغرب.

فقـد كانـت الطـائرات بمهمـة إلقـاء المـواد التموينيـة والـذخيرة للمحاصـرين في القلعـة. وهـي بـشغل شـاغل عـن إلقـاء قنابلـها علـى الفرسـان الذين تشاهدهم في طريقها.

وصـل الفرسـان إلى الـسويداء قبـل الظهـر. كانـت المدينـة تخلـو مـن أيّ وجـودٍ عـسكري فرنـسي. سـوى بعـض الثكنـات العـسكرية الـتي مـازال مرسـوماً علـى جـدرانها وأبوابهـا الخارجيـة العلـم الفرنـسي وهنـاك بعـض المحارس في الشوارع مازالت تحمل العلم الفرنسي وآرمات المحلات التجارية تحمل لوحاتها الأسماء المكتوبة باللغتين العربية والافرنسية.

كانـت كوكبـات الفرسـان الثـوار تمـر في شـوارع المدينـة. وهـي تهـزج أهازيجها الحربية.

حـرايبـاً ودهـا تصير   مـا هـي بجـال الخفـا

البارحـة ببطن الشعيب   واليـوم على روس الشـفا

كـان وقـع حـوافر الخيـل علـى رصـيف الـشارع قويـاً فخـوراً. ومنظـر الفرسـان. بكوفيـاتهم البيـضاء أو الـسوداء وشـواربهم المعكوفـة يبعـث علـى الحماسة في نفس المشاهد.

وعلى جوانب الشوارع وزواياها وقف بعض الصبية والنساء وهم يرقبون مرور قوات الثوار في شوارع المدينة وساحاتها. مزغردين مهللين.

خرجت المدينة بكاملها إلى الشوارع والساحات. كان جوّ الحماس العام يطغى على أي شعورٍ آخر. يتضح ذلك في الوجوه والعيون والأحاديث والتعليقات. كأن المدينة قد نفضت الغبار عنها وقامت بشيء يعبّر عن الإنعتاق بالحرية. وإزالة كابوس المحتل. المحتل الذي كمّم الأفواه. وحاول أن يدخل إلى القفص طيوراً اعتادت أن تحلق عالياً في الفضاء.

هذا ما كان ينغص حياة رجال الإدارة الفرنسية... المعرفة السيكولوجية للناس. كان ينقصهم الفهم التاريخي والأدبي لأناس اعتادوا أن يكونوا أحراراً.



اللّه يستر. لا أحد يعرف ماذا سيحصل ؟ قالت امرأة تحتضن طفلاً بين ذراعيها.

- اللّه يحيّيكم .. حيّ النشامى، قال رجل عجوز. كان يقف ينظر إلى كتائب الثوار وهي تعبر الشارع متكئاً على عصاه.

- أين المنصور..؟ سأل صقر أحد الفرسان المارين في الشارع. أشار الفارس بيده إلى أحد المضافات القريبة.

- إنه هناك. قال الفارس.

- كان المنصور يقف بين جمع من الرجال. يدور الحديث بينهم بصورة حماسية عالية الوتيرة. تتركز حول أمور تنظيمية للوضع القائم في بداية الثورة.

بينما كان السعاة يخرجون من المضافة مزودين بكتب موجهة. إلى القرى البعيدة عن مراكز الأحداث. تطلعهم على مجريات الأمور وتحثّهم على الاستعداد وبالسلاح للمواجهة الوشيكة في المستقبل.

كان السعاة يمتطون خيولهم بسرعة. وكلٌ منهم يحاول أن يذكّر الآخر بأسماء القرى المكلف بإيصال الرسائل لها، كي لا تتداخل مع أسماء القرى التي سيزورها ساعٍ آخر، هؤلاء السعاة الذين يستطيعون مواصلة الليل بالنهار. لتبليغ المهام المكلفين بها. ويستطيعون بالإضافة إلى ذلك أن يلهبوا الحماس العام أينما حلّوا، بفضل الأسلوب الذي يستحثون به الناس للنهوض وامتشاق السلاح.

- مرحباً بالمنصور... جئنا من قرية الصوانة للمشاركة بالثورة. ونحن على استعداد لكل ما يتطلبه الأمر.

- يهديك السلام أخي أبو قاسم ماجد السالم والشيخ أبو نايف محمود الظاهر.

- أهلاً .... وسهلاً .... برجال السالم والظاهر ومدّ المنصور يده مصافحاً صقر السالم والرجال الذين معه.

- وأخذ المنصور يشرح بصورة مقتضبة الوضع العام.

- الوضع مسيطر عليه بالوقت الحاضر. ولا نعرف ما تخبىء فرنسا في المستقبل القريب، كونوا جاهزين إذا استجد شيء فإننا سنخبركم بذلك. ابقوا بعض رجال قريتكم عندنا حتى يكونوا صلة الوصل معكم إذا حصل أي تطور.

-٢-

معلم القرية الجديد ، ترك القرية هو وأحد التجّار الدمشقيين وذهبا إلى أزرع ليستقلا القطار الذاهب إلى دمشق. إحساساً منهما بالخطر المقترب.

أودع التاجر ويدعى (أبو محمد) بضاعته في بيت أبو نايف محمود الظاهر حيث كان يقيم في إحدى غرف دار أبو نايف محمود.

- يا جيران ... يا عم أبو نايف ... أنا رايح عالشام ولا أعرف متى أرجع ... البضاعة وداعتكم. الله يجيب العواقب سليمة.

- قال الشاب الذي نقل معلم المدرسة والتاجر إلى محطة أزرع. أنه شاهد القطار وهو يقوم بإنزال المعدات العسكرية وجنود الجيش المتجهين إلى الجبل، حتى أن الضابط الفرنسي حاول أن يعتقله لولا أن المعلم توسط له. مع الضابط قائلاً له:

- إنه صغير وليس له علاقة بالتمرد والثورة الحاصلة في الجبل.

كانت نيران الحرب تشتعل على قمتي الجبل طيلة الأيام التي تلت معركة الكفر. ذلك أن أخبار الحشود العسكرية الفرنسية التي تأتي إلى أزرع كانت ترد باستمرار إلى الجبل. الأمر الذي يبعث على القلق في النفوس. خاصة أن الحرب الحاضرة تختلف بمعداتها وآلياتها عن الحروب السابقة.

أخرج صقر بندقيته الألمانية وقام بتشحيمها وتجريب المغلاق ومخزن الطلقات.

كان مقاتلو القرية يخرجون أسلحتهم. النارية منها والسلاح الأبيض. ومن لم يجد سلاحاً نارياً تسلح كيفما اتفق، حتى وإن كانت بلطة أو فأساً.

كانت قرية الصوانة لا تنام طيلة أيام أواخر تموز وأوائل آب. فهي دائماً في هرج ومرج. وأخبار الحملة الفرنسية القادمة ومعرفة ما هي الخطوة المقبلة تسيطر على الناس واهتماماتهم.

عبرت بعض قوات الثوار القرية متجهة غرباً، وهي تهزج أهازيجها الحماسية، فلاقاهم أهل قرية الصوانة بنفس الحماس وأسلوب الحداء الحربي وعلى رأسهم شاعر القرية أبو ناصر المزيد.

عجّت ساحة القرية بالمقاتلين والفرسان الذين أخذوا يهزجون الأهازيج الحماسية. بينما كان لاعب المجوز يختار الأنغام المتدفقة. التي تلهب حماسة الجميع.. ويعلو نشيد الثورة عالياً، لا يعلوه نشيد. تجعل مشاعر الناس متحدة جميعها في نشيد واحد، تضمحل عنده سائر الاهتمامات والمشاعر الأخرى. ويصبح التفكير في الزوجة والولد والأمور المعيشية الأخرى أمراً ثانوياً لا يقارن بالشعور الوطني الملتهب.

كانت وجنتا لاعب المجوز منتفختين إلى أقصاهما بفعل العزف الطويل، وهي آلة موسيقية تحتاج إلى تخزين كميةٍ كبيرةٍ من الهواء في رئتي العازف. بينما كانت عيناه جاحظتين فيهما احمرار، حتى تحسبه أنه يكاد يختنق إلا أنه يواصل العزف، يهبط ويصعد بجسمه ورأسه، حاثاً

المقاتلين على تصعيد حركات رقصهم الجنوني بأشد وأكثر ما يكون. حتى يبلغ الرقص والعزف مداه الأقصى.

حتى أن قاسم السالم الإبن الأكبر لماجد السالم حاول أن يخرج البندقية ويتبع الثوار الذاهبين غرباً، إلى حيث المعركة القادمة.

أوقف ماجد ابنه وانتزع البندقية منه.

- بعدك ولد. وعمرك لم يتجاوز خمسة عشر عاماً.

- دعني أذهب معهم يابا.

- لم يحن وقتك بعد. هذه معركة الرجال.

ودّع مقاتلو القرية القوات الثورية القادمة من قرى أخرى والمتجهة غرباً. تظللها راياتها، وأعلامها. التي كتب عليها أسماء العائلات أو القرى التي ينتمي إليها المقاتلون.

بدأ النهار باكراً في صباح اليوم التالي. كانت الشمس ساطعةً لاهبة. بخلاف أيامٍ أخرى. كان النهار فيها يتأخر متكاسلاً. حيث الندى يبقى طيلة ساعات النهار الأولى ويحسّ الناس بالنهار بعد شروق الشمس بساعات.

أما في ذلك اليوم. فقط استيقظ الجميع باكراً. وصعد الناس إلى أسطحة منازلهم.

كان صوت دويّ يسمع في البعيد لمدافع حربية يشير إلى حدوث معركة ما. لكن أين...؟

ألأمر غير واضح.

كانت تلك أصداء معركة صغيرة. خاضتها بعضٌ من قوات الثوار ضد طلائع الحملة العسكرية المتجهة من أزرع شرقاً. كانت نتيجتها خسارة الثوار لقسم من مقاتليهم ومجاهديهم بخديعةٍ حربية قام بها الفرنسيون بمساعدة الفرسان السباهيين.

كانت نتيجة تلك المواجهة الأولية أن أحبطت بعض عزائم الثوار. الذين أخذوا يخلون مواقعهم المواجهة للحملة والإنسحاب من ميدان المعركة عائدين إلى قراهم.

وفي عصر ذلك اليوم تغيّر الموقف تماماً. حيث وردت أخبار معاكسة تفيد أن مجموعات هامة من الثوار الذين كانوا يكمنون للحملة في اللجاه قاموا بمهاجمة مؤخرة الحملة المتجهة شرقاً وقضوا عليها قضاءً مبرماً. خسرت الحملة بنتيجتها معظم عتادها وتموينها واحتياطييها من السلاح والذخيرة.

وبذلك تم فصل ذنب التنين عن رأسه الذي ما زال يزحف شرقاً حيث استقر قرب نبع المزرعة محاولاً أن يستجمع قواه. كي يقفز قفزته الأخيرة تجاه مدينة السويداء.

قرب المساء. عبر فارس مغبرّ قرية الصوانة من الشرق إلى الغرب. وهو يحمل رايةً يلوّح بها جهة اليمين وجهة اليسار وهو يصيح بصوتٍ عالٍ.

النشامى... النشامى... الجيش وصل المزرعة. المنصور يدعوكم إلى الجهاد.. النشامى، ولم يمض قليل من الوقت حتى غشت القرية أعداد بالمئات من المقاتلين الفرسان. يتقدمهم المنصور. قامت القرية على إثرها ولم تقعد. اشتعلت حماسة المقاتلين وأخذت الطلقات تشق عنان السماء.

تحدث المنصور بضع كلمات حماسية موجزة.

- اليوم يومكم ...... خلّينا نعّلم الافرنسي معنى الرجولة، نعلمهم معنى حب الوطن والكرامة... رجال الصوانة يحملون اسمها .... لن نسمح للجيش أن يصل إلى السويداء...

في الليل زحفت قوات الثوار بمن فيهم مقاتلو الصوانة تظللهم رايتهم الخاصة بهم، وقد حملها مقاتل من آل المزيد. الذين يتوارثونها أباً عن جد. وهي عبارة عن قطعة قماش مستطيلة الشكل. باللون الأحمر البرتقالي. كتب عليها في الوسط (الصوانة) ترتفع على سارية بطول أكثر من مترين ونصف المتر في رأسها حربة رمح. يحرص حاملها على رفعها عالياً حتى يراها الجميع.

خرج مقاتلو الصوانة من منازلهم إلى المعركة في هدأة الليل، وقد أسرجوا أحصنتهم. وحملوا جراب خبزهم. وكيس بارودهم معهم. كما حملوا أحلام أولادهم بالحرية في قلوبهم. وقد حرصوا فقط على إطعام خيولهم جيداً قبل الذهاب، وحرصوا كذلك على أن ينعم أولادهم بنوم هادئ لذيذ.

- هكذا هي الحياة! قال صقر السالم لزوجته أم فهد قبل ذهابه.

- الحياة تحمل الوجهين. اللطيف منها والقاسي. الحب والكراهية. الوردة والخنجر. رقة الصبي النائم الذي لا يعلم هل يرى والده الذاهب إلى أرض المعركة في الغد أم لا. ووجه جنود المستعمرات البغيض.

كذلك قالت زوجة أبو نايف محمود الظاهر لزوجها.

- يكفي واحد من البيت يا أبو نايف... خليك بالبيت وهذا ابنك نايف راح مع الثوار.

- الزعامة يا أم نايف ليست بالمضافات فقط. بل بالمعركة تكون الزعامة، قال أبو نايف ذلك قبل ذهابه.

- كأقنية صغيرة تخرج من بين الصخور. لتتجمع مع بعضها البعض وتشكل سيلاً عرماً يجتاح كل ما يصادفه. كانت قوات الثوار تخرج من قراها. تتجمع مع بعضها البعض لتخوض معركة الاختيار. وتعلم الجنرال المغرورالذي قال قبل سيره إلى الجبل:

- - هؤلاء ... سأجعل جلودهم كالغرابيل... سأعلمهم معنى الشجاعة.

أشرفت قوات الثوار على موقع المزرعة. رأوا أول ما رأوا شهب الإنارة تنطلق إلى السماء. فتنير سماء المنطقة المحيطة لبضعة دقائق.

كانت شهب الإنارة التي يطلقها الفرنسيون طيلة الليل لكشف أي هجوم مباغت للثوار يساهم في مساعدة الثوار، أيضاً في كشف المناطق المحيطة بالجيش والتي لم يحكم الثوار إغلاقها جيداً. فيسارعون إلى تعبئتها بقوات أخرى لإحكام الطوق حول الجيش بشكل جيد، وعلى ضوء شهب الإنارة ظهرت الدبابات والمصفحات متمركزة على أطراف مواقع الجيش. موجهة مدافعها نحو الشرق والجنوب الشرقي وإلى جهة الشمال، بينما ربضت بطاريات المدافع في وسط الموقع مع صناديق الذخيرة. كما ظهرت مواقع نيران مشتعلة داخل المعسكر، حيث كان الحرس والمناوبون يشعلونها في ليل ذلك اليوم المشهود.

في خيمة قائد الحملة اجتمع قائد الحملة مع مجموعة من الضباط الأكفاء، هم أركان حرب الجنرال ألأشيب الذي تزيّن صدره مجموعة من الأوسمة، وقد أسندت إليه مهمة فتح مدينة السويداء وتحرير المحاصرين في القلعة. ومن ثم القضاء على الثورة.

كان الجنرال يحلّل الوضع العسكري من خلال أحداث اليوم المنصرم. ويستخلص النتائج الممكنة لمعركة الغد. حيث قال:

أنتم تعلمون أيها السادة، أننا خسرنا ذخيرتنا واحتياطيينا من المؤن والذخيرة. وبتنا أسارى هذا الصقع الموحش من الأرض، وحسبما أفادت تقارير استطلاعنا هذا المساء، فإن العدو يحيط بنا من جهة الشرق والشمال الشرقي والجنوب نسبياً. ولا يوجد أمامنا سوى جهة مفتوحة واحدة، هي جهة الغرب. والتي عن طريقها يمكن أن تأتي المساعدة إلينا، ومهمتنا في الغد هي: خوض المعركة الفاصلة والوصول إلى مدينة السويداء، وتحرير حاميتها المحاصرة والتمركز فيها إلى حين قدوم الإمدادات. ثم أضاف.

- في معركة الغد يتحدد الوجود الفرنسي في هذه البلاد، وعلى ضوئها يبنى مستقبلنا العسكري جميعاً.

- اضربوا تجمعات العدو بالمدفعية، واجعلوا الدبابات هي رأس حربة الهجوم. كما أن الطيران سيكون حاضراً منذ الصباح لمساعدتنا وسيكون النصر لفرنسا....!

- قال ضابط سمين له كرش كبير بجبين مقطب، كان يقف إلى جانب الجنرال القائد مستمعاً إلى شرحه:

- إنني أرى غير ذلك سيدي الجنرال...!
- قل رأيك بإيجاز... قال القائد بعصبية.
- سيدي: إنني أرى أن ننسحب قبل الفجر.
- ماذا .. ماذا تقول.
- سيدي. عفواً، دعني أكمل كلامي.
- تكلم وبسرعة.
- إنني أؤكد على الإنسحاب قبل الفجر. لأن العدو يقوم بتطويقنا منذ أول الليل وقواته غير معروفة لدينا. لا نعرف حجمها، وما هي خططها؟

فإن تمكنّا نحن في الغد من إحراز النصر والوصول إلى السويداء. وهذا شيء مستبعد، فإننا سنصبح محاصرين مثل الحامية المحاصرة في قلعة السويداء.

أجاب الجنرال القائد بشيء من الحديّة. رافعاً يده أمام عيني الضابط.

- لكن لا تنسى ولا يجب أن ننسى أن الجيش الذي نقوده يعدّ أكثر من عشرة آلاف جندي وضابط، ويجب أن لا تنسى أيضاً أن مستقبلنا العسكري يتوقف على نتيجة هذه المعركة. ثم تابع اعطاء تعليماته وإصدار أوامره.

- لا تدعوا طواقم الدبابات والمصفحات تترجل من دباباتهم، بل تبقى مستعدة في الدبابات....

كتائب الخيالة تبقى ملازمة لخيولها دون أن تفك الأسرجة عن ظهور الخيل.

بطاريات المدفعية تلازم مواقعها إلى جانب ذخيرتها.

حملة الرشاشات في متاريسهم.

حملة البنادق، ينبغي أن تكون الحراب مشرعة على البنادق....

لا دقيقة واحدة ضائعة.

عند الفجر ستشق المدفعية طريقها إلى السويداء.



مع خيوط الفجر الأولى. كانت المدفعية تطلق قذائفها على الجهة الجنوبية الشرقية من المزرعة، على الأهداف التي تراءت لها مع انتشار الضياء، وبدت أنها تسد طريق الجيش إلى السويداء.

انفجرت القذائف بغزارة قريباً من تجمعات الثوار الذين لاذوا وراء رجوم الحجارة. وتشبثوا بالصخور الموجودة بكثرة في المنطقة بانتظار لحظة الهجوم.

ارتفعت أكوام التراب وقطع الحجارة المكسرة بفعل القذائف في الهواء، حفرت القذائف حفراً عميقة في الأرض. وأخذت شظاياها تصفّر فوق الرؤوس، منغرزة في الأرض أو في أجساد الخيول الواقفة بانتظار الهجوم. أو أجساد البشر الذين لم يخفوا أجسادهم جيداً.

في هذه الأثناء. انطلقت جبهة الثوار الشمالية الشرقية والمتحصنة بحواف صخور اللجاه إلى الهجوم.

رفعت الرايات عالياً، وانطلق الرجال في هجوم صاعق سريع تجاه المواقع الفرنسية المقابلة لهم.

بدأت الرشاشات المنصوبة في مواقع الجيش تلعلع وهي تحصد الصفوف الأولى للمهاجمين.

بينما كانت الدبابات تقوم بحماية جوانب الجيش من موجات الهجوم المتلاحقة. مستخدمة الرشاشات من على أبراجها، وهي تتحرك يمنة ويسرة، تصلي الثوار صليات من نيران رشاشاتها ومدافعها، تودي بالعديد منهم صرعى في الحال.

كذالك كانت المدفعية تفعل فعلها في الصفوف الخلفية للثوار حيث أخذت القذائف تنفجر محدثة خسائر في الرجال والخيول. مزعزعة تماسك قوات الثوار، الذين لم يبدأ دورهم في الهجوم بعد.

تسارعت موجات الهجوم حيث لا يسمح للجيش أن يلتقط أنفاسه، والإسراع قدر الإمكان للإلتحام بالجيش لشل عمل الدبابات والمدفعية.

سمعت بعض صيحات الثوار.

- أرخصوا ... أرخصوا الأرواح.... اليوم يومكم انطلقت خيول الثوار إلى الهجوم، مشكلة رأس حربة تشق الطريق أمامها. وصولاً إلى مواقع الجيش الذي لم يستطع أن يصدّ الهجوم كاملاً، بل نجح قسم كبير من الخيالة في اختراق خطوط الدفاع. وانقضوا على الجنود بالسيوف، الذين أخذوا يتهاوون أمام موجة الهجوم الناجح السريع، الأمر الذي دفع بقية صفوف الثوار الأخرى للهجوم، مخترقين مواقع العدو... لتبدأ أكبر معركة في تاريخ الوجود الفرنسي في هذه البلاد، استعملت فيها كافة أنواع الأسلحة، وبرزت فيها البطولات النادرة وروح الاقتحام الفذة الأمر الذي أذهل العدو قبل الصديق.

علا الصراخ والصياح، كانت تسمع أصوات القادة وهم يصدرون الأوامر بالفرنسية والعربية. واختلط الحابل بالنابل. كان المقاتل يقاتل عن يمينه وعن شماله، تدحرجت الرؤوس، وبترت الأطراف لجنود وضباط سقطوا صرعى بسيوف الثوار، ودمرت دبابات وقلبت عربات، قتل سدنتها بداخلها بالسلاح الأبيض.

أشكل على قادة الجيش إدارة هذه المعركة. فهذه المعركة تدور دون قواعد أو حساب في كليات الأركان العسكرية.

فالصديق والعدو هنا في المعمعة يتصارعان. ولا يعلم نتيجة هذه المعركة إلا في النهاية.

كان حامل راية الصوانة قد انطلق للهجوم مع من انطلق يتقدم أهل القرية، تتقد عيناه حماسة ورغبة في اقتحام مواقع قوات العدو.

كانت الدبابات التي تحمي هذا الموقع. تلعلع رشاشاتها تجاه القطاع الذي هاجم منه أهل الصوانة.

أصيب حامل الراية وسقط هو وفرسه، مالت الراية نحو الأرض. إلا أن يداً اختطفتها ورفعتها عالياً ليراها الجميع.

وصل نايف الظاهر على حصانه إلى موقع رشاش كان طاقمه مشغولاً بصد هجوم من ناحية أخرى.

انقض عليهم بحصانه وسيفه. قتل اثنين منهم، بينما تكفل الحصان بالثالث.

- انتبه ... انتبه يا أبو نايف ... صاح أبو علي كايد، بينما كان عسكري له ملامح افريقية يسدد بندقيته نحو أبو نايف، أصابه في صدره.

تراخت يد أبو نايف عن البندقية. ترّنح قليلاً، ثم سقط على جنبه.

سحب أبو علي كايد أبو نايف من ميدان المعركة، ووضعه جانب صخرة قريبة، وعاد شاهراً سيفه، كان أول من صادفه ضابطاً يحتمي بهيكل دبابة وهو يطلق نيران مسدسه على الثوار حيث قتل أكثر من واحد قبل أن يداهمه أبو علي كايد.

التفت الضابط بسرعة خلفه فشاهد أبو علي كيداً شاهراً سيفه.... اتسعت عيناه. وفغر فاه ورفع يده ليحمي رأسه، وكأنه استسلم لقضائه، وقبل أن ينطق بكلمة، كان السيف قد بتر أصابع اليد ونزل إلى الكتف الذي تدلى عن جسم صاحبه وهوى الجسد في الحال.

اقتحم أبو علي كايد متراساً للجنود، فاجأهم وهم يطلقون النار. وقبل أن يتمكنوا من مفاجأته كان قد بتر اثنين منهم وعاجل الثالث بطعنة من سيفه وهو يصيح ويقول.

اشهدوا... اشهدوا... اشهدوا ياناس إلا أن دبابة جانبية سددت نيران رشاشها نحوه اصابته برشقة من الرصاص سقط على إثرها إلى الأرض مرتطماً بحجارة المتراس بعينين مفتوحتين وفمٍ قد ملأه التراب.

- صاح ماجد السالم.... احموا بعضكم ... النشامى لا تتركوا بعضكم.

حاولت دبابة أن تتحرك، فانقض عليها بعض الفرسان من على خيولهم، أطلق سدنة الدبابة النار فسقط فارسان من على خيولهم. سارت بهم الخيل مسافة وهي تجرّهم على الأرض، حيث كانت أرجلهم ما تزال معلقة في الركاب.

وضع صقر كتفه مع بعض الثوار في جانب إحدى العربات وأمالوها على جانبها الآخر وقلبوها وسدنتها فيها بعد أن أضرموا فيها النار، فاحترق الجنود بداخلها وحاول بعضهم الخروج والنار تشتعل في جسمه، حيث سار بعضهم بضع خطوات ثم سقط هامداً على الأرض.

وصل أبو حاتم كايد في اللحظة التي كان فيها رشيد يتعارك مع أحد الجنود المتطوعة القلبق وهما يتنازعان بندقية ويتدحرجان على الأرض مثل كلبين شرسين. محاولاً كل منهما أن ينتزعها من الآخر.

انطلق من البندقية طلق ناري أصاب رشيد. شلّ مقاومته تاركاً البندقية للجندي الذي حاول النهوض حاملاً معه البندقية. إلا أن سيف أبو حاتم كان قد سبقه واخترق وسطه فمال الجسم إلى الأرض وسقط وبدت قدماه وهما ترتعشان ارتعاشتهما الأخيرة قبل أن يسقط الجسم إلى الأرض سقطته الأخيرة.

كان مصير المعركة قد تقرر في الساعات الأولى، رغم تدخل الطائرات وقطعها ميدان المعركة عدة مرات جيئةً وذهاباً. لكنها لم تستطع أن تفعل فعلها، لأن العدو اختلط بالصديق. وأصبح من الصعب تمييز مقدمة الجيش عن مؤخرته... آثرت الطائرات أن تصبّ حممها على تجمعات الثوار الموجودة على أطراف المعركة مباشرة، ثم تعود لتتجه غرباً مبتعدة عن أرض المعركة وهي تصدر صوتاً كئيباً، ممدوداً. وكأنها تنعي الجيش برمته في تلك الساعات الأخيرة. في هذا المكان الموحش، عاجزة عن تقديم أية مساعدة.

لقد كتب على ذلك الجيش أن يتمزق شر تمزّق، وأن تبقى جثث جنوده وضباطه منشورة على أديم الأرض يثبت عجز دولة كبرى أن تفرض إرادتها بالقوة على شعبٍ يقاتل لأجل الحرية.

- إلى الوراء ... إلى الوراء ... صاح الضباط المتبقون على قيد الحياة بجنودهم، الذين ولّوا الأدبار تتقدمهم دبابة الجنرال قائد الجيش.

لحق بعض الفرسان بدبابة الجنرال، التي كانت ترفع علماً على ساريتها، بينما ظهرت طاقية الجنرال المرتفعة من برج الدبابة، وهو يشير بيده إلى جهة الغرب، أطلقت الدبابة النار على الفرسان، الذين أخذوا يقتربون منها. حُطمت سارية الدبابة التي ترفع العلم بضربة سيف، وسقطت طاقية الجنرال متدحرجة إلى الأرض نتيجة طلق ناري أصاب الجنرال الذي هوى إلى ارض الدبابة ينزف دماً.

إلا أن الدبابة مازالت تقاوم. تطلق النار على الفرسان المواكبين لها من رشاشاتها. سقط اثنان منهم أحدهما وقع تحت جنزير الدبابة مباشرة.

صاح الجنود الهاربون بالعربية المكسرة والفرنسية أمان ... أمان ... مسلمان ... أمان.. استسلم مئات الجنود الذين حوصروا في إحدى القرى القريبة من موقع المعركة. إلا أن البعض منهم التجأ إلى إحدى الدور وواصلوا إطلاق النار. يقودهم ضابط أحمر الوجنتين تمكن من قتل أحد الثوار وجرح آخرين وهو متحصن خلف جدار الدار. ومن فوق الجدار قفز أحد الثوار صائحاً به.

- ارم سلاحك...

حاول الضابط أن يستدير كي يطلق النار، إلا أن طلقة عاجلته خرّ على إثرها صريعاً يتخبط بدمه.

رمى الجنود أسلحتهم على الفور. وارتموا على الأرض واضعين أيديهم خلف رؤوسهم. مستسلمين لمشيئة المنتصر أمان ... أمان ....

-٣-

- ماذا أكتب يا سيدي؟

سأل ممثل الوفد الصحفي الذي جلبه قائد الحملة معه كي يغطي أخبار انتصاراته.

ويتابع الممثل الصحفي حديثه باشمئزاز.

- أي مبررات تجعل ألوف الرجال يدخلون هذا الميدان بصراعٍ مسلحٍ مميت. يفقد فيه آلاف الرجال حياتهم خلال ساعات قلائل... ومهما أوتيت يا سيدي من البراعة. فإنني لا أستطيع أن أصف حياة الذين قضوا في هذه المعركة... أو أن أخمّن ما هي أمانيهم الأخيرة. قبل أن يلاقوا حتفهم..؟

- لكنني أعلم يقيناً، أن آلاف النساء أصبحن أرامل وعشرات آلاف الأطفال قد أصبحوا أيتاماً، وحكمنا على هذه البلاد بالمزيد من التعاسة.

سكتت المدافع وخرست الرشاشات بعد تدمير الجيش الفرنسي تدميراً كاملاً.

إن ميدان المعركة، هو منظر فظيع للدمار. فآلاف الجثث منشورة في كل مكان تسد الطرقات، والدبابات المقلوبة على جانبها، تتدلى أجساد سدنتها منها وقد أصبحوا أنصاف عراة. والخيل والبغال المقتولة فوق أجساد البشر، توحي بأن ضباع اللجاه ووحوشها البرية على موعدٍ مع طعام تقتات به لمدة طويلة.

- يابا ... يابا.... صاح نايف، وهو يوقظ والده من غيبوبته إثر إصابته في بداية المعركة.

- بسيطة إن شاء الله يا نايف، لا تخاف عليه... قال أبو حاتم، فتح أبو نايف عينيه، فوجد رأسه موضوعاً على ركبة ابنه نايف، فدمعت عيناه وقال:

- الحمد لله على سلامتك يا نايف.

- سلامتك أنت يابا.

أغمض أبو نايف عينيه مجدداً، بينما كان الدم يتدفق من منطقة الصدر، أسفل الكتف مع كل حركة تنفس يتنفسها، اقترب ماجد السالم من أبو نايف وانحنى عليه.

- يا حيف يا أبو نايف .... قال شيء من الرثاء، فتح أبو نايف عينيه ونظر إلى أبو قاسم ماجد السالم، وأومأ إليه أن يقترب.

اقترب ماجد السالم، وأعطى أذنه لأبو نايف.

قال أبو نايف باسماً بصوتٍ واهنٍ لا يخلو من روح المداعبة.

- هذه المرة، أنا سبقتك يا أبو قاسم.

وأسبل عينيه.

كان دويّ المعركة يسمع في قرية الصوانة بشكل متقطع. يسمع دويً انفجارات حيناً، ثم يخبو الصوت ليعود من جديد قوياً أكثر من الأول. إلى أن خمدت الأصوات تدريجياً عصر ذلك اليوم. ولم يعد يسمع سوى صوت الطائرات التي كانت تجوب سماء المنطقة وتقوم بقذف قنابلها في مكانٍ ما.

وصلت التباشير الأولى للمعركة مع أحد فرسان القرية الذي وصل وهو يحدو راكباً حصانه المحمّل بالغنائم.

اندفع أهل القرية نحوه بتوجس وقلق.

- خبّر يا بشير، ماذا حصل؟

- انتصرنا ، والعسكر انكسر ، وغنمنا أسلحة وذخائر ورفع ثلاث بنادق فرنسية طويلة بحرباتها اللامعة أمام أهل القرية كي يتأكدوا من كلامه.

- والبقية أين هم؟

- سيصلون بعد قليل.

وصل بعده مسعود الحسون راكباً بغلاً فرنسياً ، ويقود بغلاً آخر محملاً بالغنائم.

- خبّر يا أبو سعد. ماذا حصل؟

- قتل أبو نايف الظاهر ورشيد الحامد وأبو علي كايد وأخذ يعدد أسماء القتلى من أهل القرية.

- الله لا يوفقك....! مثل البوم. لا تجيب إلا الأخبار السيئة... قال الشيخ مصطفى بامتعاض.

وصل مقاتلو القرية بالتتالي. حاملين قتلاهم وجرحاهم على الجياد والبغال التي كسبوها من العدو.

كان صقر يحمل رشاشاً ثقيلاً يلف شريط طلقاته حول جسمه وكتفيه، حتى ليكاد أن يصل إلى الأرض.

استقبل أهالي القرية الشهداء بحزنٍ كامد، وبشيء من الوقار والكبرياء. فلا بكاء ولا عويل. ففرحة النصر أقوى من الحزن.

وضع الشهداء وعددهم سبعة شهداء في المعبد الكائن وسط القرية. قال الشيخ مصطفى:

- يا الله يا جماعة، دعونا نصلي على الشهداء ونقوم بدفنهم قبل غروب الشمس قبل أن تقوم الطائرات بضرب القرية.

وقف ماجد السالم أمام جنائز الشهداء يتمشى جيئةً وذهاباً وقد لفّ كوفيته على أعلى رأسه. وعلّق بندقيته على كتفه، واضعاً يده على حمالتها. ثم توقف وقال:

- يا رجال..... شهادة الميت على الحي حق.

هؤلاء الرجال الذين استشهدوا في المعركة. هم فخرنا ونصرنا وكرامتنا.

وبالنسبة لي. فقد اختلفت مع المرحوم أبو نايف محمود الظاهر خلال حياته، إلا أن الخلاف كان خلاف كرامة.

وإني أشهد إنه أشجع مني وأكرم مني ونال شرف الشهادة قبلي. رحمه الله.

- ٤ -

عجّت الصوانة بضجيج الرجال. وقد ملئت الشوارع بالخيول التي ما تنفك تصهل وتدق بحوافرها أزقة القرية. وشوارعها. يختلط كل ذلك مع أصوات الرجال الذين يقومون على خدمة الضيوف وخيولهم. كذلك كانت تعليقات بعض سكان القرية الذين خرجوا إلى الشارع واقتربوا من دار ماجد السالم ينظرون إلى الضيوف الذين يبدو أنهم قدموا لتدارس أمر مهم في شأن الثورة، خاصة أن سلطان الأطرش قد حلّ منذ الصباح ضيفاً عند صخر أبي النصر.

- ماذا يوجد..؟

- ماذا يبحثون في هذا الاجتماع..؟ كان أهل القرية يسألون.

امتلأت مضافة ماجد السالم بالرجال. حتى أن سطح البيت الذي تقوم عليه المضافة قد ملىء بالرجال المسلحين الذين وقفوا يتبادلون الأحاديث.

في الأسفل، في أرض الدار أمام البوابة الخارجية كان بعض أهل القرية يقفون مع بعض الضيوف الذين يتضح من لهجتهم أنهم قدموا من دمشق ومناطق أخرى من البلاد. بينما علا أسطحة منازل القرية العديد من الرجال المسلحين تحسباً لغارات الطائرات وهم يراقبون الأجواء بترقب.

ذهب أبو حاتم إلى دار ماجد السالم متأخراً حيث التقى مع صقر عند البوابة الخارجية.

- هل أتى الضيوف يا صقر؟

- نعم
- هل هم كثيرون؟
- ليس كثيراً ، خمسة عشر أو عشرون رجلاً.
- من أين أتوا؟
- من دمشق ومناطق أخرى في البلاد.
- هل أتت معهم قوات؟
- بالوقت الحاضر لا .... وإنما تم الاتفاق على اشعال الثورة في دمشق والمناطق الأخرى.
- إن شاء اللّه .... نحن بحاجة إلى مساعدة. الحمل لو توزع يسهل حمله.
- واللّه يا أبو حاتم، المسألة لا تحسب بالحساب ولا تدخل في الربح والخسارة. أو موازين القوى. وكما يقول المثل (كن مع اللّه ولا تبالي).

كان الاجتماع الذي حدث في ذلك اليوم من شهر تموز يبحث في وضع الثورة ويرسم خططها المستقبلية بعد الانتصار العظيم في معركة المزرعة وما هي النتائج الناجمة عن ذلك النصر الكبير واستكشاف السبل والوسائل لتوسيع نطاق الثورة بحيث تعم البلاد جميعاً مطالبةً بالحرية والاستقلال للبلاد السورية وعلى هذا الأساس، تم تشكيل قيادة للثورة وتنصيب المنصور قائداً عاماً للثورة السورية في جميع أنحاء البلاد.

وقد ألقى بعض الزعماء من الضيوف ممن كان يلبس البذلة الافرنجية ويضع نظارات على عينه خطبة تحدث فيها عن الوطن وعن التضحية وبطولات أبناء معروف وتاريخ العرب المجيد. وبعد ذلك ترحم على شهداء الثورة وشهداء معركة المزرعة، حيث قرأ الجميع الفاتحة على أرواح الشهداء.

وبعد أن أنهى الخطيب كلامه، قام شخص آخر من الضيوف وتحدث عن مضامين الشهادة ومعاني التضحية وأهمية استمرار الثورة حتى تحرير البلاد السورية كاملة.

- نطلب الاستعجال في قيام الثورة بالمناطق الأخرى. علّق أحد أبناء القرية.
- - نعم. نعم ... هذا سيحصل في القريب العاجل...؟

أجاب أحد الضيوف.

بعد ذلك قام الحضور بمصافحة القائد العام ومعانقته وتهنئته بهذا اللقب الذي منحته إياه البلاد بجميع أهلها.

تحدث القائد العام بلغة وجيزة. عن الوضع العسكري وأوضح أن فرنسا تقوم بمناورة. وهي لن تسلّم بالهزيمة التي مني بها جيشها في المزرعة. أما الوسطاء الذين ترسلهم للتفاوض. فهو نوع من الخداع حتى يتم استكمال استعدادها العسكري وتعيد فرض سيطرتها من جديد على الجبل وتمنع قيام أية ثورة في المناطق السورية الأخرى تعضد الثورة الناشبة في الجبل.

ينبغي رص الصفوف بين جميع أبناء البلاد. وأن نعمل جميعاً كي تنهض البلاد نهضةً واحدةً ضد الوجود الفرنسي.

كان مسعود الحسون يضع بعض المعلبات ومواد تموينية أخرى. ويعرض بنادق وذخيرة في مكانٍ بارزٍ أمام دكانه.

هذه علب لحم لذيذه..! يقول لمن يقف وينظر إلى ما يعرضه أمام الدكان.

- يمكن أن تكون لحم خنزير.... يقول أحد الأشخاص.

- لا .. لا .. إنها ليست لحم خنزير. لحم الخنزير لونه أبيض وأحمر يا غشيم. هذا لحم بقر لونه أحمر.

- يمكن أن يكون مسموم... تركه الفرنسيون قصداً حتى يتسمم الأهالي.

- يوووه... لا يقتنعون حتى يروا بأعينهم ويلمسوا بأيديهم. العمى بعيونهم، كما يقول المثل (الخرا لا يصدق حتى يرى)، قال مسعود الحسون ذلك باشمئزازٍ واضح من جهل الناس وارتيابهم في كل شيء. ثم قام بفتح إحدى علب اللحم وأكل منها كي يصدق الآخرون، إنها ليست مسمومة وإنها ليست لحم خنزير.

- سامحناك باللحم .. وكما يقول المثل:

- لو فيها خير مارماها الطير... علق أحد الحضور ومضى إلى حال سبيله.

ولك يا مسعود، من أين أتيت بهذه الأشياء وهذا السلاح الذي تعرضه..؟

- من المزرعة... أجاب مسعود الحسون رافعاً رأسه بافتخار...!

- ضحك الرجل السائل مقهقهاً هه.. هه.. هه وقال ساخراً:

- مسعود الحسون صار بطل وحضر معركة المزرعة أيضاً.

- طبعاً، من غيري أتى بها..؟

- ولك يا خنزير يخرب بيتك... الناس كانت تموت بالمزرعة وأنت فكرت تجلب علب لحم وملابس وسلاح وغيره... ثم أضاف:

الذي مثلك إذا حضر المعركة يحضر فقط حتى يلم الفشك. أما القتال فهو لغيرك.

- ٥ -

جلس نايف على حجر في أرض داره ونادى على ابنه يوسف أن يقترب.

اقترب الصغير بقميصه الممزق وقدميه الحافيتين وارتمى في حضن أبيه.

داعب نايف شعر رأس الصغير ومال على وجنتيه برأسه وقبله وهو يفكر بألم.

ما ذنب هؤلاء الأطفال..؟ بل ما ذنب هذه الطفولة المعذبة أن تعيش في هذا الشقاء. في الفقر والقلق وأن يعانوا جرّاء حروب دولة عظمى تطمع في فرض سيطرتها حتى في هذه البقاع الفقيرة التي بالكاد يستطيع أهلها البقاء على قيد الحياة؟

لم يكن يوسف يضحك، بل كان يشارك أباه صمته وربما تأملاته، رغم أن الأطفال لا يستطيعون التعبير عما يختلج في داخلهم. لكنهم يدركون بحدسهم الغريزي أمارات الفرح أو الحزن على وجوه الكبار.

خاصة إذا كان البؤس عاماً وشاملاً للناس والبلاد والمستقبل المجهول.

قالت زوجة نايف:

- أنا نذرت لك وليوسف يا نايف نذراً.
- المسلّم هو الله يا حرمة.
- الله سلمك بالمزرعة. والله يعلم شو مكتوب.... وأجهشت بالبكاء.
- لا تخافي يا سلمى.. اللي له مدة لا تقتله شدة. لقد كنا بالسفر برلك وعدنا سالمين. وكنا بالمزرعة ونحن بصحة وعافية.

- السفر برلك يمكن يكون أهون... لأن الإنسان يمكن يرجع إلى بلده. لكن هنا... أين يذهب الإنسان؟

ثم قالت بعد هنيهة.

- مالنا غير الصحراء نعيش فيها مع البدو والرعيان.

- في هذه الأثناء دخل الشيخ مصطفى دار نايف.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

- كيف حالك اليوم يا أبو يوسف...؟ ثم أردف، كيف حال العجوز؟

- الحمد للّه يا شيخ مصطفى، نحن بخير، لكن أمي مازال أكلها قليل. وصحتها تعبانة بعد استشهاد والدي بالمزرعة.

- لا .. لا .. لايجوز ذلك، حرام... هذا اعتراض على مشيئة اللّه تعالى. الموت حق ثم إن أبو نايف قضى شهيد الوطن.

- قولي لمرة عمك ياعمي ياسلمى. أن الشيخ مصطفى يقول لك. لازم تاكلي وتشربي وأن تدعي للّه أن يبقى نايف ويوسف أحياء.

كانت الطائرات تمر فوق القرية غالباً في أوقات الصباح آتية من جهات حوران. وأحياناً تأتي من ناحية السويداء، بعد أن تكون قد مرّت فوق قلعتها ورمت للمحاصرين فيها المواد التموينية والذخائر. وأحياناً تقوم بقصف القرى القريبة من السويداء أو القريبة من موقع المزرعة. وكأنها تثأر لما أصاب جيشهم من هزيمة هناك.

رمت الطائرات ذات يوم قنابلها فوق الصوانة. أصابت عدداً من بيوت الحي غربي القرية. هوت القناطر الحجرية على الأرض وتهدمت المداميك العليا لبيت عابد النجار. الذي أصابته القنابل بشكل مباشر. بينما تصدعت البيوت الأخرى الملاصقة لبيته.

خرج عابد مسرعاً من البيت، حاملاً معه ابنه الصغير، بينما لم تستطع بقية أسرته الخروج من البيت. حيث تهدمت القنطرة وأغلقت أمامهم الطريق بأكوام الحجارة والتراب التي تكفلت بدفنهم تحتها. بينما علا الغبار المكان حاجباً الرؤية.. وعلا الصياح.

ركض أهل القرية إلى ناحية بيت عابد النجار. الذي كان بالكاد يلتقط أنفاسه وهو يضرب بيده على صدره. حاملاً طفله باليد الأخرى.

- كلهم ماتوا... كلهم ماتوا... الحرمة والأولاد، ساعدوني... ساعدون..... ي....

دخل بعض رجال القرية إلى البيت يسيرون فوق الحطام يحاولون أن يعثروا على أفراد الأسرة، أو أي فرد مازال على قيد الحياة بين الحجارة والغبار المتطاير، الذي لا يزال عالقاً في الهواء يعيق الرؤية.

أخذت إحدى النساء الطفل من بين يدي عابد النجار، وصارت تهدهده، بينما راح البعض يهدىء روع عابد ويواسيه في مصيبته تلك.

- كلهم تحت الأرض يا أبو قاسم... قال أحد الرجال مخاطباً ماجد السالم الذي كان قد وصل مع من وصل.

- الله يعينه ويحمل معه في مصيبته. قالت إحدى النساء.

- ومنذ ذلك اليوم أُطلق على بيت عابد النجار والمنطقة المحيطة به اسم (الخراب).

اشتد الخوف في القرية من ضرب الطائرات وقصفها للبيوت السكنية. وأخذوا يهربون ناحية المغاور والكهوف الشمالية مع مطلع الشمس. حيث يمكثون طيلة النهار مع أطفالهم وعائلاتهم خوفاً من الغارات.

حتى أن بعضهم اقترح ترحيل النساء والأطفال إلى ناحية الجبل الشرقي مع المواشي، حتى يكونوا في مأمن من الأيام القادمة التي لا تبشّر بالخير.

- ٦ -

نـزل صـقر مـن المـضافة في سـاعة متـأخرة مـن الليـل بعـد أن انـصرف الرجال الذين كانوا يسهرون ويتبـادلون الأحاديـث والأفكـار فيمـا يجـد في الأيام المقبلة. دخل الغرفة كي ينام، خلع قميصه واستلقى على الفـراش في ركـن مـن أركـان الغرفـة ودون أن يرفـع مـن ضـوء المـصباح الـزيتي كـي لا يوقظ بقية أفراد الأسرة.

كانت زوجته لا تزال يقظة، اقتربت منه وسألته:

- ماذا حصل..؟ وجهك مكدّر.
- هل رأيت النار على الجبال اليوم مساءً؟
- لم أصعد إلى سطح البيت هذا اليوم.... ماذا يوجد؟
- الحرب قرّبت .. لازم نستعد.

وارتـدت سـحنته قسمات صـارمة أكثـر مـن ذي قبـل، ظهـر صـقر أمـام زوجتـه بهيئـة سـنديانة قاسـية بلونـه الأسمـر الـذي زادت سمرتـه في الأيـام الماضـية بفعـل الـشمس، كـان قميـصه مفتوحـاً. ظهـر شـعر صـدره الغزيـر. أحست بالشوق إليه، هو رجلـها الـذي اختارتـه مـن بـين الكـثيرين لـيس لأنـه من آل السالم، بل لأنه يحمل صفات الرجولة بكل معانيها.

- طيّب وضروري أنت أيضاً أن تذهب..؟

فكـر صقر... إن من حق زوجته أن تسعى لحيـاة تحيـا فيهـا مـع زوجهـا بهدوء واطمئنان بعيداً عن الحروب والقلق الممض من فقد الزوج أو الحبيب.

عالم بعيد عن الخطر والحرب... ربما هذا العالم السلمي يا زوجتي العزيزة، موجود في مكانٍ آخر. حيث يتمكن الأزواج فيه من الخروج للتنزه وهم يتأبطون أذرع بعضهم بعضاً يسافرون. يضحكون لحديثٍ طريف. أو نكتةٍ ما. ومن ثم يعودون إلى بيوتهم مطمئنين. هادئي البال في حياتهم.

- لكن أين هذا العالم..؟

- إنه بعيد. عن هنا، لا نراه إلا في أحلام يقظتنا، ربما الذين سافروا من هذه البلاد وقد وفقوا إلى حدٍ ما أن يحييوا مثل تلك الحياة الهانئة. لكن في بلادٍ بعيدة، تقع فيما وراء البحار.

أما هنا فنحن محكومون بالقلق، وبأنواع الحرمان المختلفة خاصة أننا جبلنا على أن لا نقف في الصفوف الخلفية، لأن الواقف في الصف الخلفي يستطيع أن يتحرك أكثر، يحني رأسه أو يحك قذاله، أو يمسح حذاءه.

أما الواقف في الصف الأمامي، فهو أبداً أمام الرقيب وهو أول من تقع عليه مسؤولية المهام.... وصقر السالم لا يقبل إلا أن يكون في الصف الأمامي، وهو لهذا لن يقف في الصف الخلفي، وهو مستعد لأن يدفع كل ما يتطلبه ذلك.

- كلمته زوجته ... مابك؟ لماذا لا ترد .... بماذا تفكر؟

- لا يا أم فهد، كل واحد في هذا الأمر يمثل نفسه، ولا يجوز التقاعس عنه... يجب أن أكون على رأس المجموعة.

وضعت يدها على وجهه ومررتها على شعره بحنو.

يقال إن الإنسان في لحظات الخطر يكون بحاجة إلى الحب أكثر من أي وقت آخر. والمحب يعطي حبيبه في لحظات الخوف من فقده أو الحرمان منه مالم يعطه من قبل.

انحنت عليه، قبلتّه. عانقها. عانقته. واستسلما للحظة المتعة المختلسة من جحيم الحرب وحالة الاستنفار القصوى المستحكمة في الجميع.

كان السكون قد خيّم على القرية النائمة مع حلول الظلام، فالأطفال قد ناموا على ركب أمهاتهم. وفي أحضان جداتهم. والبعض القليل منهم حظي بمداعبات حلوة أو حكايا قبل النوم... ناموا كيفما اتفق بملابسهم الوسخة. وشعر رؤوسهم الوسخة. أما أمهاتهم فقد نمن من شدة التعب والهم على مصير أبنائهن وأزواجهن.

أما الكبار، فقد رقدوا أنصاف نيام، متدثرين بعباءاتهم أو قفاطينهم، مضطجعين اضطجاعاً، بعد أحاديث مبتسرة قليلة.

سكون شفاف، هادئ، فلا تسمع أية نأمة، سوى حركة سريعة، خفيفة، يثيرها سنجاب ما في أحد الجدران أو صوت قلقلة دجاج.... لا ندري من أيقظها من نومها. يبدو أن في قنها شيئاً ما أقلقها. فأخذت تصدر عنها حركة غير مفهومة داخل القن.

أو صوت نباح كلبٍ. أخذ ينبح في الليل عندما سمع وقع أقدام عابر سبيل من بعيد، وكأنه بحاجة إلى من يسليه ويؤنسه في الليل. وقد بدأ بالنباح بعد أن سمع وقع أقدام عابر السبيل وهو بعد لا يراه. وكان نباحه يشتد كلما اقترب وقع الأقدام، ثم يأخذ نباح الكلب بالخفوت تدريجياً كلما أخذت هذه الأقدام تبتعد عن الموقع الذي احتله الكلب. وهو غالباً

على أحد الأسطحة أو أمام بوابة الدار يرقب الشارع. ولم يصمت الكلب إلا بعد أن توقف عن سماع أي حركة في الشارع، الأمر الذي يدل على طبيعة الكلاب الحمقى. كما يقولون.

أرَق صقر تلك الليلة. نباح أحد الكلاب. الذي كان ينبح بصورة غريبة. صوته كان ممدوداً ومتواصلاً يبعث على الخوف في النفس. عوو ... عووو .... عوووو.

خافت زوجة صقر من صوت الكلب، حيث يعتبر نباحه بهذه الصورة نذير شؤم.

- سامع يا صقر صوت الكلب..؟
- نعم سامع. نامي ولا تخافي.
- اللّه يستر، ليس له عادة ينبح بهذا الشكل.
- لا تخافي يا مره. يمكن أن يكون قد رأى وحشاً ما في الليل وقد خاف منه.

سُمع صوت ماجد يتنحنح وهو ينهر الكلب.

احم ... احم ... اطلع بره .... بره....

وسمع صوت ارتطام حجر بأحد الجدران تلاه صوت عويص الكلب بطريقة قصيرة وسريعة ... وي .. وي .. وي وي .... تنم عن الألم وقد ركض سريعاً مبتعداً عن المكان.

في الصباح ارتدى صقر ملابسه بسرعة وهو يحاول أن يسرع كي يرى من هم الرجال القادمون. الذين يرحّب بهم أخوه ماجد.

- يا هلا .. يا هلا بالرجال ... تفضلوا.

كانت الجياد تنخر في أرض الدار. وأصوات حوافرها تسمع وهي تبدّل قوائمها على الأرض. وقد صعد الرجال إلى المضافة، دون أن يفكوا الأسرجة عن ظهور الجياد.

علم صقر أن الرجال قدموا بمهمة مستعجلة ولا ينوون الإقامة.

دخل إلى المضافة وسلّم على الرجال.

- يا هلا بصقر ... قال أحدهم وهو يشد على يده بيدٍ مفتولة العضلات وعينين مليئتين بالعزم، وقد تمنطق بحزام من الرصاص. يحمل بيده بندقية يتضح أنها جديدة من لمعان خشب الأخمص بلونه الأحمر الزيتي.

تكلم الرجل الذي شدّ على يد صقر:

- المنصور يحييكم . واليوم لازم يحضر مقاتلو الصوانة إلى السويداء. إلى جانب بيارق قرى الجبل الأخرى. هناك أمرٌ هامٌ سيحدث.

- هل هناك معركة قريبة..؟ ... لقد سمعنا أن الفرنسيين يحشدون قواتهم في حوران، ويستعدون للهجوم على الجبل.

- لا نعرف تماماً، والذي نعرفه أن الجميع ينبغي أن يكون على أهبة الاستعداد. ربما تكون الأيام القليلة القادمة حاسمة. ونحن نؤكد بلسان قيادة الثورة على وجوب الحضور بالسلاح الكامل وتموين عدة أيام إلى السويداء.

وبعد أن شربوا القهوة. هموا بالإنصراف.

- لا والله .... لا يجوز أن تتصرفوا دون أن تأكلوا ، وأنتم تطوفون طيلة الليل من قرية إلى أخرى.

بعد نصف ساعة كان صقر يصعد الدرج إلى المضافة حاملاً معه طبق الطعام وقد وضع فيه بعض الأرغفة من الخبز الساخن وبيضاً مقلياً. وبعض الجبن واللبن.

تفضلوا يا رجال عالميسور.

- الله يكثر الخير، هذا خير الله.

وبعد أن أكل الرجال، ودعوا ماجداً وأخاه صقر. وامتطوا جيادهم وذهبوا إلى قرية أخرى.

في عصر ذلك اليوم. كان مقاتلو الصوانة يأخذون طريقهم إلى السويداء، يتقدمهم ماجد السالم وأخوه صقر ونايف الظاهر والشاعر المجيد أبو ناصر. الذي كان يحدو حداءً حماسياً، ينشد فيه قصيداً يستذكر أسماء الشهداء الذين سقطوا في المزرعة ومن بينهم أبو نايف محمود وأبو علي كايد وغيرهم...

كان عازف المجوز، يعزف عزفاً مهيباً. ذا ترنيمة خاصة. يعرفها جميع أهل القرية. يُعزف هذا النوع من العزف حين خروج البيرق.... تلك الراية ... التي تظلل رؤوس مقاتلي القرية وشرفهم. إنه أشبه بموسيقى حربية. يسير العازف ممتطياً جواده أمام حامل الراية، مواصلاً عزفه المهيب. بينما خرج الناس.. النساء والأطفال وجميع أهل القرية ... كي يشيّعوا بنظراتهم مقاتلي القرية وبيرقهم. بعد أن اجتمعوا خلال وقت قصير. وساروا وراء حامل رايتهم. إلى حيث المعركة.

في المساء أشرفوا على السويداء حيث لاحت لهم جموع بيارق القرى الأخرى ومقاتليها، الذين تجمعوا جماعات جماعات، وبعضهم وجد لديه وقتاً للعزف على المجوز والناي، بينما تم اخفاء الخيول بين الصخور ووراء الأجمات أو أبعدوها في الأماكن المنخفضة من الأرض بانتظار القرار الذي سيتم اتخاذه في هذا الاجتماع.

كانت الشمس قد أشرفت على المغيب وقد اصطبغت السماء بلونٍ أرجواني أحمر وقد تغطت ببعض الغيوم المتقطعة التي ساقتها ريحٌ خريفية باردة توحي ببداية فصلٍ جديد.

كانت بيارق القرى الأخرى تتوالى بالقدوم من مختلف الجهات، بفرسانها ومشاتها يثيرون الحماس بقدومهم الصاخب، بأصوات مجاوزهم التي ما تنفك عن التغريد. وحدائهم الحماسيّ المدويّ. وسرعان ما تأخذ القرية مكاناَ ما في التجمع الذي أخذ يتكامل.

سأل القائد العام:

- من هي القرى التي لم تصل قواتها بعد؟
- بقيت قرية كوم الرمان لم تصل بعد.
- انتظروا قليلاً كوم الرمان قرية مهمة، ورأي أهلها مهم. إنهم لن يتأخروا حتى يحضروا.

وما هي إلا ساعة حتى علا الضجيج. وسمع صوت الحداء المتعالي.... إنهم أهل قرية كوم الرمان. الذين قدموا بكثرة واضحة، يتقدمهم لاعبا مجوز، كانا لفرط الحماس يستنفذان قواهما في العزف دون انقطاع. ازداد

حماس الناس لوصول أهالي قرية كوم الرمان بعددهم الكبير وحماس مقاتليهم المنقطع النظير. وعلت وجوههم إمارات البشر والسرور.

انتحى المنصور في خيمته ببعض قيادات الثورة وزعماء بعض القرى المؤثرة وبعض رجال الدين ممن لهم الكلمة المسموعة. حيث تم تبادل الرأي والمشورة حول الوضع العسكري.

- الجيش الفرنسي أقام مركز تجمع له في المسيفرة، ويعزّز قواته يومياً بانتظار أن يقفز إلى السويداء.

- ولقد أخبرنا رجال الاستطلاع. أن قواته تستكمل خلال عدة أيام. وهو الآن يقوم بتجميع قواته ريثما تصل البقية من ازرع ومن درعا.

- ما رأيكم..؟ هل نقوم بمباغتة الجيش وهو في المسيفرة قبل أن يستكمل استعداده ويقوم بالزحف على الجبل.؟ أم ننتظره حتى يصل إلى حيث تدور المعركة؟

- بل نقوم بمباغتته وهو بالمسيفرة. ونقضي عليه كما قضينا على جيش ميشو من قبل... قال ذلك شاب كان يقف بين الحضور. توحي سيماؤه بالقوة والعزم يرتدي جاكية عسكرية وجزمة جلدية حمراء. يبدو أنها كانت تخص أحد الضباط الفرنسيين.

- لا بل ننتظر قدوم الجيش إلى هنا. لأن المسيفرة أرض مكشوفة وقد تخبىء لنا المفاجآت. قال آخر متقدم بالسن.

- وأنت ..؟ سأل القائد موجهاً كلامه لماجد السالم ما رأيك يا أبو قاسم؟

- أنتم تقولون أن الجيش في المسيفرة لم يكمل استعداده بعد، وهو يكمله خلال أيامٍ قلائل، ومن ثم يبدأ الزحف إلى السويداء.

- ورأيي أن نقوم بمهاجمة الجيش في المسيفرة قبل أن يستكمل استعداده. لأنه إذا أتم استعداده، فإننا لن نستطيع أن نتكهن بنتيجة المعركة المرتقبة.

- وأنت يا شيخ أبو فاضل ما رأيك، إن رأيك يهمنا..؟

أجاب الشيخ ذو اللحية الشائبة، وقد علت سيماؤه مسحة من الهدوء والوقار.

- إن الله سبحانه وتعالى يأمرنا بحفظ الأنفس من التلف لكن هذه الأنفس تبذل في سبيل المصلحة العامة والدفاع عن الأرض والعرض. وإني أرى أن الهجوم على المسيفرة فيه مخاطرة كبيرة. لكن إذا كان الذهاب فيه مصلحة البلاد والعباد، فإني ذاهب معكم.

- نحن لا نحتاج إلا إلى بركاتكم شيوخنا الكرام. أنتم ادعوا لنا دون أن ترافقونا.

- كيف لا نرافقكم..؟ ونحن نقضي حياتنا نحاول أن نكون قدوة لغيرنا. ونضرب المثل على أن الإنسان ينبغي أن يكون صادقاً مع نفسه ومع الناس. وعليه أن يؤثر غيره عليه. وإذا دعا داعٍ إلى الجهاد. سواء جهاد النفس أم جهاد الحرب، فإن رجل الدين ينبغي أن يكون في مقدمة المجاهدين.

- - مادام الأمر كذلك... على بركة الله، غداً صباحاً سنهاجم المسيفرة. وفتح الجميع أيديهم بقراءة الفاتحة.

بعد ذلك طلب المنصور من رجل يلبس زيّاً شبه عسكري أن يشرح بعض جوانب المعركة المقبلة.

- تفضل يا سيد سليم، ووضّح لنا كيف يمكن أن نهاجم الجيش في المسيفرة ونخترق تحصيناته..؟

قال السيد سليم، باسطاً خريطة بدائية على طاولة وضعت على عجل. مشيراً بإصبعه إلى مكان المسيفرة على الخارطة.

- تتقدم القوات. وتتحشد في القرى القريبة من المسيفرة هذه الليلة. وتتحرك إلى المسيفرة بعد منتصف الليل، ويبدأ الهجوم مع الفجر، بحيث نفاجىء الجيش عند الصباح، ثم أضاف:

وحسبما علمنا، أن القوات الفرنسية لديها مدفعية ودبابات والطائرات جاهزة عند مطلع الشمس، لذلك ينبغي علينا أن نسارع في الهجوم، وأن يكون الهجوم صاعقاً عنيفاً وسريعاً، بحيث نتمكن من اقتحام الخنادق والأشرطة الشائكة وأن نلتحم بالقوات الفرنسية داخل المعسكر، قبل أن تتمكن الطائرات من التدخل وبذلك فإننا نشلّ عمل الطائرات.

ثم يضيف:

إن الفرق بين معركة المزرعة والمعركة المرتقبة، في أننا سنخوض هذه المعركة في أرض مكشوفة، وإذا تأخرنا قليلاً في النجاح في اختراق دفاع العدو، فإننا سنكون عرضةً لضرب الطائرات ونيران رشاشاتها.

- والتحصينات، والشريط الشائك الذي يحيط بالمعسكر ماذا بشأنه.؟

- نستطيع أن نؤمن عشرة مقصات كبيرة للشريط الشائك وتخصيص رجال معينين لفتح ثغرات من أماكن مختلفة لتسهيل مرور القوات المهاجمة.

أما الخيالة، فتكمن غربي القرية. لقطع طريق انسحاب الجيش، ولمنع وصول أية نجدات إليه من طريق درعا كما ينبغي أن يتم تركيز الهجوم على الجهة الشمالية الشرقية لأنها الجهة التي تتمركز فيها معظم قوات الجيش.

على الجانب الآخر، كان معسكر المسيفرة في حالة توتر شديد فالعرفاء وصف الضباط كانوا يروحون ويجيئون بين المواقع المختلفة، وهم يدققون في التحصينات ويوزعون الأوامر باليقظة والحذر والانتباه، إن كل المؤشرات تدل على توقع هجوم على المعسكر الليلة أو غداً، حيث أن الطائرة التي طارت عصر ذلك اليوم فوق السويداء والمناطق المحيطة بها، قد كشفت عن تجمعات كبيرة لقوات الثوار، كما أن الفرنسيين المحاصرين في القلعة قد أرسلوا إشارات بالمرايا العاكسة تنبىء بقرب وقوع هجوم قريب.

هذا بالإضافة إلى أن إحدى الدوريات قد عادت في المساء وقد اشتبكت مع طلائع قوات الثوار، وعادت إلى المعسكر وهي تحمل قتيلاً وجريحاً.

اعترت العريف (أندريه) من الفرقة الأجنبية قشعريرة، وهو يجلس في متراسه خلف رشاشه الثقيل وقد اطفئت الأنوار، ومنع اشعال النار بشكلٍ صارم بل وتم حتى منع اشعال السجائر.

عبثت الرياح الهابة بغطاء رأسه الذي ارتداه اتقاءً لبرد الليل، وقد تسمّرت نظراته في هذا الليل البهيم، جهة الشرق، حيث يتوقع أن يظهر العدو منها فجأة.

حدّق بإمعان. لكنه لم يرَ شيئاً، أصاخ السمع، علّه يسمع وقع حوافر خيل. أو صوت أقدامٍ تتحرك لكن الريح، لم تجلب سوى صوت تطاير أوراق النباتات البرية الجافة.

جال بفكره. يوم تطوع بفرقته الأجنبية في فرنسا، إنها روح المغامرة. التي دفعته للتطوع، والأمل في أن يحيا حياة ينال بها بعض المتع والتفكه، خلال ترحاله مع عناصر الفرقة في مختلف مستعمرات دولته.

لكنه الآن يحس بالإنقباض، ربما لوجوده في هذا المكان الموحش، الذي قاده إليه مصيره. وقد بات على قناعة أنه لا فائدة ترجى من البقاء في هذه المنطقة، ولا شيء ينتظره من المكاسب والمتع سوى الخطر، وترقب الموت في كل لحظة.

ولقد أخبره بعض الناجين من معركة المزرعة. أنهم نجوا من الجحيم. وقد وصفوا له الثوار الذين قاتلوهم بأنهم أشبه بالأشباح. يخرجون من بين الصخور يلبسون السواد. وشفرات سيوفهم تقطع الرجل إلى نصفين. وأن القيادة الفرنسية قد كذبت عليهم عندما زجّت بهم، في هذه المنطقة الخطرة، التي لا ينجو منها إلا كل طويل عمر.

فكرّ العريف في نفسه، في الفرق الكبير بين الجندي الذي يخدم في بيروت، حيث يستطيع أن يتلهّى ويسهر في مقاهيها وملاهيها حتى الصباح... هناك، حيث النساء من كل حدبٍ وصوب. والخمرة المتوفرة

بكثرة بصحبة المرأة التي تريد. تدفئ فراشك. وتنسيك أفكار غربتك، وبعدك عن الوطن.

بدت له أحاديث ضباطه الفرنسيين في المقاهي والأندية عبارة عن سخافات، لا تحمل شيئاً من الصحة، وهم بادعاءاتهم الفارغة، أشبه بكراكوزات يكذبون على الجنود، ويحتمون بهم... وإلا ما معنى أن تكون أكثرية الجنود في هذه الأماكن الخطرة من أبناء شمال إفريقيا وإفريقيا السوداء وأبناء الأقليات المحلية التي تستغلها فرنسا أبشع استغلال.

- لم يكن لمفعول طلق ناري أن يفعل فعله كما فعله ذلك الطلق الناري. الذي خرج دون رويةٍ أو تدبير وقد شقّ ظلمة الليل، وبدد السكون المخيم على ليل المسيفرة في تلك الليلة، فتحت على إثره أبواب الجحيم. مئات البنادق والرشاشات، أخذت تلعلع في الهواء ، تشقّ ظلمة الليل بإطلاق نارٍ غزير، لا على التعيين.

يشحذه الخوف من الموت بضربة سيف أو طعنة خنجر. أنارت الأضواء الكاشفة ساحة المعركة. أظهرت جموعٍ كثيفة من الثوار وهي تتوسد الأرض قرب خنادق المعسكر تماماً. وما هي إلا لحظات حتى هبت الصفوف الأولى للمهاجمين واقفة. وانطلقت إلى الهجوم بسرعة هائلة وهي تعلو بأصواتها الهتّافة وصياحها المدوّي. الذي يخلع القلوب رعباً. ويفتت العزائم شدة.

- .... إنهم لا يسقطون. قال أحد الجنود وهو يضغط بإصبع يده على زناد الرشاش. حتى أنه شكّ أن الرشاش لا يعمل، أو أنه في حلم. ضغط على ظهر الرشاش بشدة كي يتحسس خروج الطلقات.

سقط أحد المهاجمين قربه مباشرة. ملقياً جسده على حجارة المتراس، وشاهد الدم يتدفق بغزارة من الرأس والكتف.

تحطمت الموجة الأولى للهجوم. سقط المهاجمون عند حواف الخنادق. وبعضهم علقت أجسادهم على الشريط الشائك، فأصبحت أجسادهم هدفاً للرمي.

إلا أن الموجة الثانية للهجوم نجحت في اختراق خطوط دفاع الجيش، وتقدمت تنازل الجنود القتال داخل المعسكر. حيث نشبت معركة ضارية بالسلاح الأبيض وبالأيدي العارية، داخل الخنادق ووراء المتاريس، بعد ذلك حان دور الخيّالة. التي انطلقت إلى الهجوم السريع نحو المعسكر، مستغلة الثغرات التي نجح المشاة بفتحها بأجسادهم. دخل الفرسان إلى وسط القرية حيث ركزّت الرايات في الساحة العامة وتمكن بعضهم من الصعود إلى أسطحة المنازل وبدؤوا بإطلاق النار علي الجنود.

كان ماجد السالم قد دخل المعركة ممتطياً حصانه يلفّ جسده بعباءةٍ تتطاير مع الريح وكأنه يسير في عرسٍ من أعراس القرية. حتى أنه لم يأبه للرصاص المنهمر بغزارة. تمكن ماجد من الصعود إلى سطح أحد المنازل في القرية وتمركز خلف حجرٍ اسطواني الشكل. يستخدم كمدحلة للسطح أيام الشتاء. وبدأ إطلاق النار بعد أن وضع ما معه من طلقات إلى جانبه.

كانت أرض المعركة كالنار المشتعلة. تخبو حيناً ثم تعاود الاستعار من جديد عندما تنطلق موجةٍ جديدة إلى الهجوم.

مع شروق الشمس. قدمت الطائرات وهي تطير على ارتفاعٍ منخفض، وتوجهت شرقاً وإلى الشمال الشرقي من أرض المعركة، وأخذت رشاشاتها تلعلع ثم تعاود الكرة دائرة حول القرية من جديد. ثم تتجه إلى الجنوب الشرقي. منقضة على الأرض، ملقية قنابلها على بعض قوات الثوار التي لم يحن دورها في الهجوم بعد.

ومثلما تتلاشى العاصفة فوق البحر تبدأ الأمواج بالهدوء شيئاً فشيئاً...... هكذا بدأت موجات الهجوم بالتلاشي تدريجياً، بينما خفّ أوار المعركة داخل القرية نفسها.

ركزّ عدد من الجنود نيران بنادقهم إلى سطح البيت الذي تمركز عليه ماجد السالم، الذي لا زال يقاتل، وقد ملأ المكان حوله بفوارغ الطلقات. حتى أن ماسورة البندقية أصبحت تكاد لا تلمس لشدة حرارتها، لكنه عندما حاول أن يملأ مخزن بندقيته من جديد. كانت الطلقات قد نفذت.

سمع صوتاً يشبه صوت أخيه صقر.

- انزل يا ماجد .... انزل ....

لكن إلى أين؟

أحس بغضبٍ عارمٍ، لأنه لم يعد لديه الطلقات لمواصلة القتال. فما كان منه إلا أن هبّ واقفاً حاملاً بندقيته بيده اليمنى، معرضاً نفسه للرصاص، وصاح بالجنود الذين رأوها فرصة سانحة لهم.

- هآنذا، من منكم يستطيع أن يصعد إليّ.

- هيّا تعالوا يا أولاد الكلب.

ومثل الكيس المليء بالقش مزّقته الطلقات من كل جانب.

ترنح قليلاً، وحاول أن يقول شيئاً وسقط.

- ساعدني يا أبو حاتم، ساعدني ... صاح صقر وهو يجر جثة أخيه ماجد من على السطح، محاولاً انزاله إلى الأرض، وبسرعة فائقة وضع جثة أخيه على ظهر الحصان أمامه وانطلق يعدو خارجاً من القرية تلاحقه طلقات البنادق.

صادف في الطريق بعض المقاتلين العائدين من أرض المعركة، وهم يحملون معهم جرحاهم وجثث بعض القتلى على خيولهم أو على ظهور الجمال.

كان من بينهم شيخ كبير في السن يقود جملاً وضع فوقه جثة شابين استشهدا في المعركة، وقد تراخت أيديهما وضفائر شعرهما نحو الأرض.

كان الشيخ قد خرج في إثر المقاتلين إلى المسيفرة، يقود جملاً محملاً بالماء والغذاء. إلا أنه عاد يحمل جثة ولديه إلى قريته.

كان المنظر فظيعاً، يعبّر عن مدى المأساة التي حدثت.

قال صقر للشيخ:

- ياعم. الله يرحم الشباب. إني أرى أن تدفنهما هنا قبل أن تصل إلى القرية. فإذا رأت هذا المنظر أمهما أو أختهما أو زوجة أيٍّ منهما، فإنها لن تبقى حيّة بالتأكيد.

يقال: إن المرء يحدس أحياناً أشياء دون أن يراها. ويصبح عنده الحدس أشبه باليقين ... هكذا حدست العجوز. زوجة الشيخ. وأمّ الشابين القتيلين وهي تقيم في الدار في قريتها. أن ولديها استشهدا صاحت العجوز. ولطمت بيدها على صدرها، ولولت وبكت.

تراكض الجيران.

- كفى الله الشر ياأم سلامه.
- الأولاد ماتوا ... ماتـ.....وا.

صاحت العجوز بصوت ممدود وأغشي عليها. رشّوا على وجهها الماء حتى صحت.

- ماذا تقولين ..؟ ... هل وصل أحد من رجال القرية..؟
- لا .... لكن قلبي يقول لي. إنهم استشهدوا.
- وحدي ربك يا أم سلامه، للآن لم يأتِ أحد من رجال القرية ويخبر بما حصل، وإن شاء الله يكونوا سالمين.
- أنا رأيت في المنام البارحة أن حيطان المضافة تتهدم. والحجارة تتساقط على الأرض.
- لا حول ولا قوة إلا بالله ... قال أحد الرجال ضارباً كفاً بكف شفقةً على العجوز.
- يا أم سلامه. وكلي ربك .. إن شاء الله الشباب وكل رجال القرية يعودون بالسلامة.

عضدت النساء العجوز ودخلن بها إلى الدار وهنّ يهدئن روعها بانتظار أن يأتي أحد، ويجلب معه الأخبار التي تطمئن.......!

وصل صقر إلى قريته قبل الغروب حيث وجد العديد من المقاتلين قد عادوا، إلا أن عدداً هاماً منهم. لم يتمكن من العودة إلى القرية .... لقد لاقوا حتفهم هناك في المسيفرة، تشمر الريح أغطية رؤوسهم. وتعبث بشعرهم المختلط بالدم. تاركة الأجساد المخرّقة بالرصاص والممزقة بشظايا القنابل تحت رحمة العدو.

أصيب العريف (أندريه) بالخبل جرّاء المعركة. فأخذ يتجول في أرض المعركة، حاملاً مسدسه بيده. يبحث عن الجرحى. يجهز عليهم. الواحد بعد الآخر.

وقف الجنرال العابس أمام كل الجثث. التي أمر بجمعها وصب الوقود عليها واشعال النار فيها. ينظر إلى الأجساد البشرية وهي تحترق وتتحول إلى بقايا رماد هياكل آدمية. كانت منذ ساعاتٍ خلت بشراً يمشون ويحيون ويضحكون.

فأيّ تكريمٍ هذا...؟

يأتي جنرال من وراء البحار، تعلّق عليه الدولة العظمى آمالها، يقتل شباب شعبٍ صغير، ويأمر بإحراق جثثهم دون أن يمنحهم الفرصة للدفن بشكل طبيعي تحت الأرض، وأن يكون لكلٍ منهم لحد يوسد فيه.

استقبل أهل الصوانة إحراق جثث أبنائهم بغضبٍ شديد عارم. ونقمةٍ عارمةٍ. لأن العبث في جثث القتلى يعتبر إهانة كبيرة في الشرق تعادل قتلها مرة ثانية.

هذا ما لا يفهمه الجنرال العبوس أو ساسة الغرب المتحضرون. الذين يتعاملون مع الإنسان كشيءٍ ماديٍّ صرف. أما هنا في الشرق. فإن الأمور أكثر شفافية وأكثر رقةً وشاعرية.

كان الضباط الفرنسيون، العاملون في المنطقة قبل الثورة يسخرون فيما بينهم. من تلك الطقوس ومن ذلك الاهتمام الذي يوليه السكان لموتاهم. وحرصهم الشديد على القيام بمراسم تأبينية كاملة للمتوفى. ويعتبر الضباط أن الحرص على المشاركة في الجنازات والسفر من القرى البعيدة للقيام بهذا الواجب. هو من قبيل ضياع الوقت لدى الشرقيين. الذين لا يقيمون وزناً للوقت أو أهمية للعمل. وقد بقي أولئك السادة الضباط وغيرهم غريبين عن روح الشعب، وبعيدين عن فهم المعنى الإنساني لتلك العادات وأهميتها. التي تتلخص في أن مراسم التأبين للمتوفى، هي الوداع الأخير لإنسان عاش على هذه الأرض ردحاً من الزمن، أحب وأبغض وهادن وشاكس ما قدّر له أن يفعل. والناس في ذلك يأتون ليقفوا في وداعه. في لحظته الأخيرة، ويقولون كلمة فيه. قبل أن يوارى التراب. ويختفي جسده عن سطح الأرض، وهو نوع من التقدير والتقييم لإنسان عاش بين الناس.

- ٧ -

أقبل الشتاء. ببرده وأمطاره الغزيرة، بخلاف السنة الماضية. التي كانت جافة وقليلة الأمطار.

تدفق وادي الذهب غزيراً بهديره المعتاد. وقد ملئت برك المياه حتى شفتها، وتدفق الزائد منه إلى الأرض المجاورة، كأنه يعيد الحياة إلى طبيعتها الأولى، يوقظ في الناس إمكانية الحلم، ويشيع رؤيةً ملونة للمستقبل. ينسي أهالي قرية الصوانة مآسيهم وأحزانهم. ويعيد دورة الحياة. متناغمة متجددة.

ويحدث أحياناً. أن الإنسان في أوقات اليأس. عندما ييأس من أخيه. قد يجد في الأشياء الأخرى روحاً ومحاكاةً تؤنسه. تهدئ القلق الذي يعتريه. وتجدد الثقة لديه. إن الحياة ماضية في سبيلها مهما حصل.

هكذا كان يفكر الشيخ أبو هاني، الذي يقوم بيته على ضفة وادي الذهب. حتى أن أمواج مياه الوادي كانت تتلاطم مع حجارة البيت، وتصل أحياناً إلى حواف النوافذ المطلة على الوادي.

يرقد الشيخ أبو هاني عند نافذة بيته. أو على صخرةٍ قبالة الوادي. يرنو إليه. ويسرّح الطرف فيه متأملاً حركة المياه المتدفقة لساعات طويلة أحياناً يراقب انسياب قطعة خشبٍ ما أو عودٍ ما يسبح على وجه الماء. تتقاذفه الأمواج، إلى أن يستقر على جانب الوادي، أو يغمره انحدار شلالٍ صغير.

يسأله بعض الناس:

كيف تستطيع أن تنام بجوار الوادي. رغم هديره وصخب أمواجه الذي يسمع لمسافاتٍ بعيدة.

فيجيب الشيخ أبو هاني بشيء من الود:

- يعلم الله أن نومي يصبح ثقيلاً وهنيئاً عندما يكون الوادي قوياً غزيراً، عندها يكون نومي أهنأ ما يكون.

ولو بدّلوا لي مسكني بمسكنٍ آخر أجمل منه وبعيداً عن الوادي، لما قبلت.

يضحك أهل القرية من هذه الإجابة المرحة ويكبرون في الشيخ وده وتلطفه ويتندرون من إجابته ويضحكون.

كانت الجراح التي أحدثتها الثورة في نفوس أهالي الصوانة لا تزال تنز.

فمضافة ماجد السالم لم يعد فيها ذلك الزخم الاجتماعي، الذي كانت فيه سابقاً. وقد هدم جدار دار ماجد بفعل إحدى قنابل الطائرات، فبدت مشوّهة. توحي أن الدار قد تيتمت لغياب صاحبها عنها، بشخصيته القيادية وحضوره المتميز بين الناس، فالضيوف أصبحوا قلائل، ومعالف الخيل خلت من جيادها، وأصبحت أماسيها يطبق عليها الأسى والحزن مثل سائر بيوت القرية الأخرى.

فالكثيرون منهم لا يستطيعون تأمين قوت يومهم في الشتاء. وقد خرجوا من سنةٍ قاحلة، والقلق ينتاب الناس من المستقبل الآتي، فيجعلهم غير متحمسين للزراعة، كانت الأحاديث تدور بين الناس حول احتمالات المستقبل والمتوقع منه. حيث أن المؤشرات تدل على أن المعارك ستستأنف مع الربيع القادم.

حول موقد الحطب، في مضافة صقر السالم، التي أصبحت تعرف باسمه بعد مقتل أخيه ماجد. تحلّق الرجال يتحدثون، وقد لفّوا أجسادهم بفرواتهم جيداً اتقاءً للبرد.

- معذرة يا رجال. بعد مقتل أخي أبو قاسم. لم نعد نقدم قهوة بالمضافة. قال صقر لجلسائه.

- قهوتك مشروبة يا أبو فهد. الهم واحد، وكل إنسان يعزّي نفسه. أجاب نايف.

- البارحة جاءت زوجة سلمان الراضي وطلبت مداً من القمح. فالمؤونة عندهم نفدت، والناس صارت تأكل خبز شعير.

- لأن السنة الماضية كانت ماحلة، ولا أحد زرع شيئاً أو حصد شيئاً.

- يا عمي. هذه البلاد معتادة على الجفاف منذ آلاف السنين سنة غلال، سنة محل... حتى إذا رجعنا لقصة النبي يوسف، ابن النبي يعقوب عليهما السلام، وقصته مع إخوته الذين أرسلهم والدهم إلى مصر كي يكتالوا القمح، كان في بلاد الشام جفاف، وقد ذهبوا إلى مصر النيل كما بعثهم أبوهم، وهناك تعرفوا إلى أخيهم يوسف عليه السلام.

قال الشيخ مصطفى معقباً وشارحاً القصة.

- لكن يا أخي، بعض الناس صارت تأكل خبر الشعير، وبعض الأفندية لم يخسر شيئاً، وما زالت تأكل خبز قمح ودهناً.

- سمعنا أن حسيب أفندي وماجد بك. كانوا بالقلعة وطلعوا مع الفرنسيين المحاصرين فيها. لماذا لم يحاسبوا..؟

- معليش يا رجال. قال صقر:

الشجرة الكبيرة لا بد ما ينبت حول جذعها بعض الطحالب، وهؤلاء هم طحالب تنبت على جذع الثورة.

لكن المشكلة الآن. هي الأولاد والحريم. أين نذهب بهم؟ أولادي وأولاد أخي أبو قاسم، خاصة أن قاسم ابن أخي الكبير مازال طري العود لا يستطيع الإنسان أن يعتمد عليه.

بيفرجها اللّه يا أبو فهد، قال أحد الحضور.



ذات يوم من أيام أوائل الربيع. قدم التاجر الدمشقي أبو محمد مع ابن له، يركب كلٌّ منهما بغلاً ودخلا إلى دار أبو نايف محمود الظاهر.

- يا أبو نايف ... يا نايف .. صاح أبو محمد.

- تفضل ... تفضل ... أجاب نايف من داخل المضافة وخرج ليرى أبو محمد أمامه.

- من ... أبو محمد ..؟ يا أهلاً ويا سهلاً..

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام. تفضلوا ادخلوا.

دخل أبو محمد إلى المضافة مع ابنه.

- كيف أحوالكم ..؟ ... ان شاء اللّه الجميع بخير ولم يتأذ أحدٌ منكم خلال الثورة..؟

- - الحمد للّه يا أبو محمد.. المهم كيف أحوالك أنت .. وكيف أهل الشام..؟ إن شاء اللّه لم يحصل عندكم أي ضرر من هؤلاء الفرنسيين المجرمين..؟

- واللّه يا أبو يوسف، الضرر كثير. والشام التي تعرفها أصبح قسم منها خراباً.. دمروا البيوت فوق رؤوس أهاليها في الميدان والشاغور، الحالة صعبة. الفرنساوي كابس على البلد.

- ان شاء اللّه يا أبو محمد كان طريقكم سهلاً، ولم تلاقوا فيه صعوبات في الوصول إلى الجبل..؟

- يا لطيف الطف..! في محطة أزرع. الجيش موجود في كل مكان. حتى أنهم حاولوا أن يمنعونا عندما علموا أننا قادمون إلى الجبل. لولا أنني أخبرتهم أنني قادم لأسترد ديوني... لكن قل لي أين العم أبو نايف..؟

- تعيش أنت. عمك أبو نايف استشهد بالمزرعة.

- ماذا تقول ... عمي أبو نايف مات.؟

لا إله إلا اللّه ... اللّه يرحمه ... العمر لك يا نايف، الفاتحة ياجماعة على روح المرحوم. ثم أضاف:

- واللّه يا نايف قلبي كان مشغول عليكم من كثرة الأخبار التي نسمعها، وأنا أردت أن أطمئن عليكم وعلى أحوالكم. نحن بيننا خبز وملح... والدك المرحوم كان مثل والدي. يحميني ويحرص على مصلحتي. وكنا دائماً نقعد في المضافة نتحدث... اللّه يرحمه.

بعد قليل، دخلت أم نايف وزوجة نايف والأولاد.

- العمر لكم ياجماعة. الله يرحمه عمي أبو نايف.

وأخذ يخرج من الكيس بعض الحاجيات التي جلبها معه كهدايا. أخرج خنجراً مفضضاً قدمه إلى نايف.

- هذا خنجر هدية لك يا نايف.

ثم أخرج عباءة سوداء مقصبة بالذهب. حملها بين يديه وأجهش بالبكاء ... هذه كنت قد جلبتها هديه لعمي أبو نايف، هي الآن لك يا نايف.

- شكراً لك يا أبو محمد، لماذا تتعب نفسك..؟ نحن والحمد لله بخير.

ثم أخرج بعض السكاكر، وقدمها للولدين. ومسح على رأسيهما بيده ... الله يخليهم ... الله يخليهم.

دخل بعض أهل القرية من النساء والرجال إلى مضافة نايف، بعد أن علموا أن التاجر أبو محمد قد أتى.

وأخذوا يقلبّون الأشياء التي جلبها من دمشق.

ثياب .. ملاعق .. صابون .. خيطان ... أحذية... سكاكر ... الخ.

البعض منهم اشترى وسأل أبو محمد، إذا كان يقبل أن يبيع بالدين.

قال نايف لأبو محمد:

- الناس حالتهم صعبة يا أبو محمد.. الناس الآن تأكل خبز الشعير ... طوّل بالك عليهم.

- الأغراض، كلها على حسابهم يا أبو يوسف. يأخذوا الذي يريدونه، والحساب بعدين.

- نعطيك حسابك على الموسم.... إذا كان لنا نصيب أن نجني الموسم.. أو لم يقض الفرنسيون علينا وعلى الموسم.

مع قدوم الربيع تحرك نسغ الحياة في العروق، وأخذت ألأغصان تتغطى بالأوراق الخضر، وتفتحت الأزهار في الحقول. وخفّ هدير مياه وادي الذهب، وصفت مياهه. بعد أن كان عكراً معربداً في الشتاء. أصبح هادئاً طيعاً، رقراقاً في الربيع. وخلت الجبال الشرقية من الثلوج التي كانت تتغطى بغطاءٍ أبيض طيلة فصل الشتاء. وأصبحت بقع الثلج فيها تكاد لا تلحظ من قرية الصوانة.

خرج الناس إلى الحقول، يلتقطون طعامهم من النباتات وحشائش الأرض، تخفف عنهم وطأة المؤونة التي كانت قد نفدت باكراً في الشتاء.

وعلى عكس جريان الطبيعة، المتأني، المسالم. في فصل الربيع. كانت الجيوش الفرنسية، تسير سيراً حثيثاً بقواها المدمرة وأسلحتها الفتاكة. فاتحة مدينة السويداء. وبدأت بإخضاع سائر مناطق الجبل الأخرى مسببةً الدمار الكبير للناس والبيوت والأرزاق، وهاهي ذي أخبار الجيش، يقتحم القرية تلو الأخرى، قد وصلت إلى الصوانة.

كانت المقاومة ضعيفة. لا تصمد أمام زحف الجيش. الذي استقدم تعزيزات جديدة من فرنسا وشمال افريقيا كما أن قسماً مهماً من المقاتلين، قد لاقى حتفه في المعارك السابقة. وبقي القسم الآخر الذي فضّل اللجوء إلى اللجاه لمتابعة القتال بشكل عصابات مسلحة.

هكذا، قرر رجال الصوانة. أن يرحلوا إلى اللجاه وأن تبقى النساء والأولاد والشيوخ في القرية بحماية بعض المقاتلين، لمنع التعدي عليهم.

في الصباح، جاء أبو حاتم راكباً حصانه، ومّر على بيت نايف الظاهر، وصاح منادياً إياه.

- يا أبو يوسف .... أخرج كي نذهب باكراً.

- أبو حاتم..؟ .. إلى أين أنت ذاهب؟

- معكم إلى اللجاه...

لا يا أبو حاتم. لا ... أنت رجل كبير في السن، ولا تثير حفيظة الفرنسيين مثل الشباب إذا بقيت في القرية. ثم إننا نحتاج إليك في القرية، حتى نحمي النسوان والأولاد.

- أنا أبقى مع النسوان والأولاد يا أبو يوسف .... الله يسامحك، أنا صرت مثل شيخ العرب الذي تقدم فيه العمر وأبقوه مع الأولاد والنسوان، ولم يعد يصلح لشيء..؟

- معاذ الله با أبو حاتم.... أنا لم أقصد ذلك.

لكن ينبغي أن يبقى أحد في القرية، لا نستطيع أن نرحل جميعنا إلى اللجاه.

وافق أبو حاتم بعد تفكيرٍ قصير.

- معك حق يا أبو يوسف. أنتم اذهبوا. الله معكم، ولا تخافوا على القرية. سنبقى نحن كبار السن فيها.

الفصل الثالث

- ١ -

خرج مقاتلو الصوانة خيالةً وراجلين، جماعات جماعات، كل ثلاثة أو أربعة رجال معاً، متجهين إلى اللجاه.

سلام عليك أيها اللجاه. يا من احتضنت المقاتلين والثوار عبر الأجيال. وحميتهم بدرعك الصخري. وأخفيتهم بين حنايا ضلوعك، وفي كهوفك ومغاورك ذوات السراديب اللانهائية. وكنت الحصن المكين لطالبي الحرية والأمان.

كان اليونانيون القدامى، ومن بعدهم الرومان، قد أقاموا الأبراج العسكرية حول محيط الجبل الشرقي المحاذي للبادية. وذلك لمنع الاعتداء على مناطق الجبل الداخلية، والعبث بالعمران والزراعة المتطورة. أما حافة اللجاه الشرقية والمحاذية للبادية. فلا يحتاج الأمر إلى إقامة أبراج عسكرية أو إجراء أية تحصينات بسبب اعتبار اللجاه نفسه منطقة محصنة طبيعياً، حيث أطلق عليه اليونان إسم (أرض الصخور) وقد ثبت أن الغزاة كانوا يصلون إلى حافة اللجاه الشرقية. دون التمكن من التوغل فيه بسبب خوفهم من الاصطدام بأي عدو يقيم فيه. الأمر الذي أكسب سمعة لقاطني اللجاه. بوصفهم رجالاً يتمتعون بالهيبة والشجاعة. وهو بصفاته تلك، أصبح مكاناً ملائماً للرهبان والنساك. الذين ينقطعون للعبادة والتزهد فيه. حيث طارت إلى الأماكن البعيدة سمعة بعض الرهبان والصالحين. الذين ابتنوا لأنفسهم

صوامع وأديرة، اشتهرت بين الناس وأصبحت مقصداً للكثيرين. الذين يودون الحصول على بركات الناسك أو المتعبد.

نظر صقر حوله وهو يدخل في وعر اللجاه متأملاً تلك الصخور التي تغطي وجه الأرض.

- يا الله. انظر يا نايف أيّ حصن هذا..؟ هذه غابات من الصخور الطبيعية، أستطيع أنا وأنت أن نصدّ طابوراً بأكمله.

- يقال إن اللجاه كانت مغطاة بأشجار الغابات قديماً.

- قد يكون ذلك صحيحاً، فهاهي بعض الأشجار القزمة من البلوط والزعرور والبطم مازالت موجودة. وقد حدثني جدي، أن اللجاه كانت فعلاً مليئةً بالغابات وقد قطع الكثير من أشجاره في حرب ابراهيم باشا، استمرت المعارك أكثر من سبعة أشهر متواصلة الحملة تلو الحملة. وحدث أنه تم أسْرُ أحد الثوار في إحدى المعارك من أبناء الجبل. حيث أحضر إلى القائد ابراهيم باشا حيث سأله:

- ما سرّ صمودكم طيلة هذه المدة بوجه حملاتنا المتلاحقة..؟

- وبكل الثقة، أجاب الأسير. وكان رجلاً كهلاً.

- السبب يا باشا، إن جيشك كله لمّ. ونحن كلنا عيال عمّ.

وكان يقصد الأسير أن جيش ابراهيم باشا، كان أغلبه من المرتزقة.

وبينما كان صقر ونايف وبقية من معهم يسيرون ويتبادلون الأحاديث والانطباعات. سمعوا صوت طائرات في الجو. التفتوا إلى جهة الجنوب الغربي. حيث شاهدوا طائرتين مسرعتين تقتربان منهم.

الطائرات ... الطائرات ... يا أبو فهد.

- انزلوا بسرعة على الأرض.... بسرعة.

وما أن ترجّلوا عن جيادهم وتوسدوا الأرض، حتى كانت رشاشات الطائرتين تحصد الأرض بنيرانها وقد امتلأ رأس صقر بفتات الصخر المهشّم.

وحدها الخيول المسكينة التي تضررت من هذه الغارة المفاجئة. فما أن انتهت الغارة، حتى نهض الرجال ونظروا حولهم وإذا بجثث ثلاثة خيول من بينها فرس نايف الصفراء التي ورثها عن أبيه قد مزقتها الطلقات. وبغل محمّل بالمؤن قد شرد المسكين لهول المفاجأة. يجرّ رسنه وراءه وقد تبعته طائرة وحصدته بنيران رشاشاتها فوقع متكوماً فوق الصخور.

اقتحم الجيش الصوانة من جهة الغرب والجنوب الغربي. بواسطة الخيالة ودون مقاومة. حيث اجتمعت القوة العسكرية في الساحة العامة للقرية. يقودها ضابط برتبة كولونيل يمتطي حصاناً أشهب من الخيول الفرنسية الضخمة، حيث طلب الضابط جمع رجال القرية في الساحة العامة خلال ساعة واحدة.

صعد سلمان الراضي إلى سطح منزله وبدأ بصوته المعتاد يعلم أهل القرية بالأمر العسكري الذي طلبه الكولونيل.

- يا قرايبنا أهل البلد ... الإجتماع بعد ساعة واحدة بساحة القرية بأمر الكولونيل. ويكرر النداء بعدها.

يا قرايبنـــا أهل البلــــد ....

اجتمع الرجال الموجودون في القرية تنفيذاً للأمر العسكري، وكان من بينهم الشيخ مصطفى الظاهر وجدعان الحامد ومسعود الحسون وعابد النجار وأبو حاتم وبقية من بقي من الكهول والصبيان.

كان الجنود يحيطون بالساحة وهم يشهرون بنادقهم وقد نصبت عليها الحراب، وأحاطوا برجال القرية من كل جانب بعد قليل، خرج الضابط من المنزل المجاور للساحة بقامته المديده وطاقيته الإفرنسية المميزة. كان يحمل سيفاً بيده اليسرى موضوعاً في غمده. كان يبدو أن غمد السيف قد زيّن ببعض الأحجار الكريمة.

وقف الضابط أمام الناس على دكة مرتفعة يرافقه ترجمانه. الذي كان يتضح من قسماته الشرقية ،أنه من أهل البلاد.

نظر الضابط إلى رجال القرية ملياً، أخذ يتأملهم، ثم قال:

- إن دولة فرنسا العظمى. بعد انتصاراتها المبهرة في المعارك ضد قوى التمرد والعصيان، أخذت على عاتقها مهمة فرض الأمن على كافة أنحاء الجبل، ولقد قدمنا إلى قريتكم لنطهرها من العصابات المسلحة، ثم أمر المترجم أن يترجم ما قاله.

وتابع كلامه:

- ونحن سنتابع مطاردة تلك العصابات حتى أعماق اللجاه للقضاء عليها.

ترجم. أمر الضابط:

- كونوا هادئين، طيّعين، تنالوا الأمان. وسنتخذ تدابير نعاقب فيها العصاة، لمنع أي تمرد في المستقبل.

ستهدم مضافة ماجد السالم ومضافة محمود الظاهر لدورهم في الثورة....!

سرت همهمة وسط الحشد عندما ترجم المترجم ما قاله الضابط.

- لكن ماجد السالم ومحمود الظاهر قتلا يا حضرة الضابط. ولا داعي لهدم مضافتيهما ، قال الشيخ مصطفى، معترضاً على قرار الضابط.

انتبه الضابط إلى كلام الشيخ مصطفى وهو يستمع إلى المترجم فأشار بيده إلى الشيخ مصطفى أن يتقدم إليه.

تقدم الشيخ مصطفى من الضابط ووقف أمامه على بعد خطواتٍ منه، تأمّله الضابط بضع لحظات، وسأل:

- أين قتل ماجد السالم ومحمود الظاهر؟

- سكت الشيخ مصطفى ولم يعطه جواباً.

- لماذا لا تجيب..؟ قال الضابط بغضب.

- هل قتلوا مع فرنسا أم مع المتمردين والعصاة..؟

- قتلوا مع الحق يا حضرة الضابط، أجاب الشيخ مصطفى بهدوء.

نظر الضابط إلى الشيخ مصطفى شزراً ، وهزّ رأسه متوعداً.

- هكذا إذن..؟ أنت مع المتمردين... سيحين الوقت الذي تحاسب فيه، أنت وغيرك... قيدوه.

تقدم ثلاثة جنود وأخذوا يوثقون الشيخ مصطفى من يديه.

ماج الحشد قليلاً، وحاول أبو حاتم أن يتقدم، إلا أن الشيخ قال لمن خلفه.

- لا تتحركوا ... طوّلوا بالكم.

تابع الضابط بصوت منفعل املاء أوامره وتعليماته.

- ستجمع مائة بندقية من القرية. تسلم ظهر يوم غد، والذي لا يستطيع أن يقدم بندقية، يدفع عشر ليرات ذهبية عوضاً عنها..... إن هذا السلاح، هو سلاح فرنسا. الذي استولى عليه المتمردون من الجيش الفرنسي في المزرعة.

كما سيتم إعدام كل من يقدم مساعدة للعصاة والمتمردين رمياً بالرصاص.

هيّا انصرفوا، وأشار بيده اليمنى، وأدار ظهره وعاد إلى المنزل الذي خرج منه.

في الليل دار مسعود الحسون على بيوت القرية. محاولاً جمع السلاح المطلوب، أو دفع المال ممن لا يستطيع تقديم بندقية.

وصل مسعود إلى بيت ماجد السالم فنادى على قاسم.

خرجت أم قاسم من المنزل فرأت مسعود الحسون أمامها.

- ماذا تريد؟

- نريد بارودة من عندكم يا أم قاسم.

- لا يوجد عندنا بارودة ... أجابت أم قاسم بعصبية وانزعاج وأشاحت بوجهها عنه.

- كيف لا يوجد...؟ وبارودة المرحوم أبو قاسم، أين هي؟

- لاتجيب سيرة والدي على لسانك. قال قاسم الشاب الذي كان يراقب الحديث بين مسعود وأمه. وتقدم من مسعود الحسون يريد أن يضربه.

- لاه ... ياقاسم ... لاه ... أنا أعمل لمصلحتكم! وأنت مثل أولادي، مازال الشعر لم ينبت على وجهك وبعدين فرنسا دولة حاكمة. ونحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً معها!

- اذهب ... اذهب .. قل للضابط .. أن بارودة ماجد السالم لا تسلم ولا تباع.

....

في الليل. كان أبو حاتم وعابد النجار ومعهما قاسم ابن ماجد السالم يقفون في أرض دار ماجد السالم. إلى جانب القنطرة الرومانية الخارجية وقد لبسوا الألبسة الثقيلة وتلثموا بالكوفيات بحيث لا يرى من وجوههم سوى أعينهم. يتداولون في أمر إطلاق سراح الشيخ مصطفى والمعتقل في البيت الذي ينزل فيه الكولونيل.

- جهّز الخيل يا عابد وأبقهم على البيادر الشمالية وأخفهم بشكل جيد، ولا تثر ريبة الجنود.

- أنا أريد أن أذهب معكم يا عمي أبو حاتم. قال قاسم.

- لا يا قاسم، الأفضل أن تبقى أنت في البلد. تحتاجك البلد وأسرتك، أما نحن فسنبقى نأتي إليكم ولن نترككم.

- بعد منتصف الليل كان أبو حاتم وعابد النجار يتسللان إلى الدار التي يقيم فيها الضابط الفرنسي وقد حجز الشيخ مصطفى فيها أيضاً، في غرفة من غرفها.

رغم أن عدد الجنود الذين يحرسون الدار في الشارع وعلى الأسطحة كان كبيراً، استطاع الرجلان أن يدخلا من دارٍ أخرى هي دار جدعان الحامد، الملاصقة للدار التي ينزل فيها الضابط والشيخ مصطفى معتقلاً.

- انتبه يا عابد للعسكري الذي يقف على السطح.

تسلل جانب الحائط بالعتم. لا تمشي بأرض الدار .... تلك هي الغرفة التي حجز فيها الشيخ مصطفى، اترك الحرس لي أنا. وأنت تدخل تفكّ قيود الشيخ وتعود عن طريق دار جدعان الحامد. واضح..؟ قال أبو حاتم ذلك لعابد النجار موضحاً له ماذا يفعل.

مشيا بحذر جانب الحائط مخفيين نفسيهما بالعتمة، وكلما استدار الحارس نحوهما لطيا بالجدار دون أية حركة حتى اقتربا من غرفة الشيخ مصطفى.

وبخفة النمر، قفز أبو حاتم إلى الحارس ووضع يده على فمه وبجرّة واحدة من خنجره، جزّ عنقه، بينما كان عابد يفتح باب الغرفة ويصيح بالشيخ مصطفى.

- ياالله يا شيخ، عجّل ... عجّل .... اخرج بسرعة، ثم اقترب من الشيخ وأخذ يفك وثاقه.

وقع الحارس القتيل على الأرض، ارتطمت بندقيته في حجارة أرض الدار فسمع لها صوتاً نبهت الحارس الذي يمشي على الأسطحة، فصاح... من هناك...؟ صمت الثلاثة دون أية حركة لإبعاد اشتباه الحارس. إلا أن الظل الذي تركته جثة الحارس على الأرض زادت شكوك الحارس أن شيئاً ما يحدث. فصاح مجدداً. من هناك..؟ وحاول أن ينزل إلى أرض الدار، فعامله عابد بطلقة من بارودته أردته إلى أرض الدار قتيلاً.

- هيا ... هيا .. بسرعة ... أخرج أنت والشيخ وأنا سأحميكما.

- استيقظ الضابط وهرع بثياب النوم الداخلية، حاملاً مسدسه وتحصّن خلف نافذة الغرفة التي ينام فيها وأخذ يطلق النار.

في هذه الأثناء. (استيقظ الجنود النائمون ودخل قسم منهم إلى الدار. بينما ظهر قسم منهم فوق أسطحة الدار وهم يتوسدون السطح وأخذوا يطلقون النار مصوبين بنادقهم إلى أرض الدار وهم يصيحون.

عصابة .... عصابة ....

تمكّن عابد والشيخ مصطفى من أن يخرجا من الدار وأن يدخلا إلى دار جدعان الحامد ، ومنها إلى الزقاق الخلفي للبيت الذي يقف عليه الجنود. بينما لم يتمكن أبو حاتم من اللحاق بهما.

لقد أصابته رصاصة في فخذه أسقطته على الأرض.

أسند ظهره إلى الجدار وأخذ يطلق النار.

أطلق الجنود عشرات الطلقات إلى الناحية التي يجلس فيها أبو حاتم وهم لا يرونه بوضوح بسبب العتمة التي تخفيه. التزم أبو حاتم الصمت ولم يرد على الطلقات بعد قليل. أضيئت المصابيح الكشافة. فظهر أبو حاتم جالساً على الأرض وهو يسند ظهره إلى الجدار وقد حمل بارودته في يده. ووضع يده الأخرى فوق رجله التي كان يسيل الدم منها.

ارم سلاحك ... صاح الجنود.

إلا أن أبو حاتم أجاب بطلقة من بندقيته أردت أحد الجنود قتيلاً. وما أن همّ بتلقيم بندقيته من جديد حتى كانت عشرات الطلقات تخترق جسده من كل جانب.

طلع الصبح على صوت الانفجارات التي هزت دار ماجد السالم ودار محمود الظاهر... أفزعت العصافير التي طارت خائفة مذعورة من

أعشاشها وأخذ الدجاج يصيح فزعاً وهو يحاول الطيران دون أن تمكنه أجنحته القصيرة وجسمه الثقيل من أن يطير أبعد من بعض الحيطان الواطئة، يقف عليها، متقّلاً نظراته جهة اليمين وجهة اليسار، فاتحاً مناقيره ليعبّ الهواء، كي يخفف انفعاله وهو يراقب الحجارة والتراب المتساقطة حوله من فعل الإنفجار.

- عفواً سيدي: قال مسعود الحسون للضابط الواقف بعبوس.

- ماذا يريد ذاك ...؟ قال الضابط للترجمان، مشيراً بقرف إلى مسعود الحسون.

- لم نستطع سيدي، أن نجمع أكثر من خمسٍ وعشرين بندقية وخمسين ليرة ذهبية، إن القسم الأكبر من السكان قد تركوا القرية.

- الأمر العسكري يجب أن ينفذ ... ثم تابع، حاول العصاة في الليل قتلي، كما قتلوا ثلاثة جنود فرنسيين وقد تمكنّا نحن من قتل واحدٍ منهم.

- سيدي: أعطنا مهلة عشرة أيام فقط وسنحاول جمع البنادق المطلوبة.

- قال الترجمان هامساً للضابط.

إني أرى يا سيدي أن نعطيهم تلك المهلة، وإلا فإنهم سيلحقون بالثوار الآخرين في اللجاه، وفي هذه الحالة فإننا لن نستفيد شيئاً.

بعد تمهّل قصير وافق الضابط على النصيحة.

- حسناً سنصبر عشرة أيام، وإذا لم تجمع البنادق المطلوبة سوف تقذف القرية بالقنابل.



-٢-

- أهلاً وسهلاً بالشيخ مصطفى وبالأخ عابد، قال صقر مرحباً بهما عند وصولهما إلى اللجاه.

- خبّر يا شيخ مصطفى ماذا وراءك..؟

- قصّ الشيخ كيف أتت الحملة العسكرية إلى القرية. وما حصل من اعتقاله وهدم مضافة ماجد السالم ومضافة محمود الظاهر. وجمع السلاح والغرامة. وما حصل بعد ذلك إلى مقتل أبو حاتم.

طأطأ صقر رأسه غمّاً وحزناً وقال:

- إيــه.... رحمة الله عليك يا أبو حاتم. كنت سبع الرجال، قال ذلك وكأن أبو حاتم أمامَهُ.

ثم أضاف:

- ضحّى بنفسه كي ينقذك، وينقذ القرية يا شيخ مصطفى.

- كله بإرادة الله، أنا لم أرد أن يخاطر بحياته من أجلي وكنت أتمنى أن أضحي بحياتي لأنقذ القرية.... أنا لست أحسن من الذين ضحوا بحياتهم.

- لو بقيت في القرية، كان أفضل يا شيخ مصطفى، القرية الآن تحتاج إلى الرجال أمثالك، برأيهم ومشورتهم، ثم أن اللجاه باردة عليك، وصحتك لا تتحمل ذلك.

- يهوّنها الله يا أبو فهد.. الذي كاتبه ربك يصير.

- أخبرنا أيضاً ياشيخ كيف حال الناس في القرية..؟

- الوضع العام، أنتم تعرفونه. الناس بحاجة إلى القمح للمؤونة والخبز، وبحاجة إلى التبن والشعير لدوابها.

- منذ أيام، ذهب رجلان من القرية إلى عين النمر ومعهم ابن أخيك قاسم. كي يجلبوا قمحاً من أجل الخبز وفي الطريق خرج عليهم بعض قطاع الطرق حيث قتلوا الرجلين، وتمكّن ابن أخيك من الهرب والوصول إلى القرية سالماً... اللّه سبحانه وتعالى سلّمه من أولاد الحرام.

- يا لطيف ... من هم هؤلاء الحقيرين..؟ الذين قتلوا الرجلين... هؤلاء السفلة ...! عوضاً عن أن يشاركوا في الثورة. تراهم يتربصون بالناس الأبرياء ويسلبون أشياءهم ويقتلونهم. هؤلاء مثل الضباع. لا تعيش إلا في الظلام، وهي دوماً تختار ضحاياها من الضعفاء غير المحميين...إنها شيمة الجبناء.

- هل عرف من هم؟ قال صقر غاضباً من سماع هذه الأخبار.

- لم يعرفوا من هم. فقد كانوا ملثمين ومسلحين. وإنما قال قاسم ابن أخيك أن لهجتهم ليست كلهجة أبناء الجبل.

- يا أخي في مثل هذه الأوضاع التي يضطرب فيها الأمن يستغل بعض أصحاب النفوس الضعيفة الظروف ويقومون بالاعتداء على الناس. هؤلاء يجب أن يحاسبوا كخونة للثورة والبلاد.

قال ذلك أحد الثوار الحاضرين.

- يجب ألا ننسى. أن الفرنسيين. أيضاً يحاولون زرع عملاء لهم. يقومون بالأعمال التخريبية المعادية للثورة والتي تهدف إلى إضعاف الروح المعنوية لدى السكان.

قال نايف معلقاً على الحديث.



في المساء. اجتمع الثوار في اللجاه. وأخذوا يترقبون وصول قوّة من الثوار. يقودهم المنصور وما هي إلا ساعة من الزمن، حتى وصلت قوّة الثوار إلى مكان الاجتماع.... ترجّل الرجال عن جيادهم.

وأقبل الآخرون يسلمون عليهم وعلى المنصور.

- سلّم المنصور على الضيفين الجديدين، وشدّ على يد كايد النجار.

كان كايد يلتقي لأول مرة بالمنصور عن قرب كانت بنيته متينة. توحي أن صاحبها قد تمرّس على خشونة العيش وقساوته.... أعجب به وبشخصيته الصارمة. المليئة عزماً.... إلا أن حزناً بادياً كان في عينيه. أقلق كايد حيث سمعه يقول:

- الحملة الآن تتجه إلى قرية عين النمر بعد خروجها من قرية الصوانة. وهناك ستراقبها جماعة رشيد المرشد وتمنعها من التعدي على القرى التي تقع في طريقها. ثم أضاف:

وأنتم تعلمون أيضاً أن فرنسا ركزت كلّ قواها لإخماد الثورة في الجبل. بعد أن استطاعت أن تخمد أو تحاول أن تمنع انتشار الثورة في سائر

المناطق السورية الأخرى. وهم يقومون بمحاصرتنا وتجويعنا. ومنع أية مساعدة تقدم لنا....

سنواصل مقاومة الفرنسيين بجهودنا المتبقية. وإن أخفقنا في ذلك. فإننا نفضل عيش البادية والصحراء إلى أن يفرجها الله على هذه البلاد.



كان مسعود الحسون يعرض في دكانه بالصوانة بنادق للبيع من مختلف الأنواع /فرنسية – انكليزية – ألمانية – وحتى عثمانية/ يبيعها بسعرٍ أقل من مثيلاتها في السوق.

- لكن هذه البنادق لا تصلح يا مسعود للعمل. قال أحد أهل القرية الذي أخذ يعاين البنادق.

- لا يهمك. كله ماشي ... المهم البارودة وخلاص بعدين، هذه بارودة أرخص من غيرها بثلاثة ليرات، اختر البارودة التي تريدها بسبع ليرات فقط.

- من أين أتيت بهذا السلاح يا مسعود..؟

- المهم جبناه... ودبرّنا حالنا، حتى نفك ضيقتنا.؟

- ولك يا مسعود. الذي يشاهد هذا السلاح عندك، يقول إن كل السلاح الذي كان مع الفرنسيين بالمزرعة موجود عندك.

- عندي ولاّ عند غيري، أنتم ماذا تريدون ..؟ أنا أقضي حوائجكم ثم قال بتأفف.

ناس لا تستحق أن تخدم.. الذي يضربهم مثل الذي يقبلهم.. لا فرق عندهم.

كان مسعود الحسون يلعب لعبة خطيرة مع الفرنسيين. إذ أن الفرنسيين عندما عجزوا عن مصادرة السلاح من الأهالي بالكامل، وإخماد الثورة. أخذوا يفرضون الغرامات الباهظة عن كل بندقية يعجز الأهالي عن تقديمها. بقصد جمع أكبر كمية ممكنة من الذهب، الذي بالكاد حصل عليه الأهالي عبر السنين، وقد ادخروه لأيامهم الصعبة. خوفاً من القحط والحروب والمجاعة. وهذا الذهب يحرصون عليه كحرصهم على مؤونتهم، لا يستخرجونه إلا عند الضرورة القصوى.

وفي سبيل إفقار الشعب وتنفيذ تلك المؤامرة. فتحت الدولة الفرنسية مستودعات الأسلحة لديها، وأخرجت منها السلاح القديم. الذي أصبح بمعظمه غير صالح للإستعمال. وطرحته بالسوق للبيع بسعرٍ رخيص عن طريق بعض التجار. الذين بدؤوا يبيعونه للأهالي بأسعار أرخص من السعر العادي للبارودة الواحدة موهمين الأهالي أنهم يحصلون على بنادق رخيصة، وأن السلطة الفرنسية تقبلها بكل أنواعها. حتى لو كانت لا تصلح. موهمة الناس أن السلطات تتساهل في قبول هكذا أسلحة قديمة. وتعفيهم من دفع الغرامة البالغة عشر ليرات عن البندقية الواحدة لكن الأهم أن هذا السلاح يجمع من جديد من الأهالي ويدخل إلى المخازن. ثم ليعود ويخرج ثانية إلى التجار والعملاء، ويباع مرة أخرى... وهكذا استعمل الفرنسيون هذه الحيلة لنهب الأهالي وإفراغهم من احتياطييهم الذهبي، والقضاء على

مـدخراتهم القليلـة، الـتي ادخروهـا لأيـام الـشدة. وتقـوّي وضـعهم المـادي والمعنوي في ثورتهم تلك ضد الفرنسيين.



تعلّـم عابـد النجـار في اللجـاه، كيفيـة التعامـل مـع البـارودة. وكيـف يستطيع أن يفرّغ محتويات قذائف الطائرات الـتي لا تنفجـر مـن البـارود. عـن طريـق فكّهـا وتفريغهـا مـن محتوياتهـا وكيـف يمكـن اسـتخدام البـارود مجـدداً، عـن طريـق وضـعه في أكيـاس تـربط جيـداً، وتوصـيل فتيـل إليهـا حيث يتم إشعاله حين يراد استخدامه كلغم.

وضّـح أحـد قـادة مجموعـات الثـوار، كيـف أن خـط سـكة الحديـد، الذي يوصل بين دمشق ومحطة أزرع، هو الشريان الأساسي الذي تنقل عبره القوات الفرنسية إلى الجبل. والمهمة تقتضي بتعطيل هـذا الخـط بـأيّ شـكلٍ من الأشكال.

كُلـف صـقر الـسالم مـع عابـد النجـار وثلاثـة مقـاتلين آخـرين، بمهمـة تعطيل خط القطار. لأن الأخبار قد أظهرت أن قوات كبيرة سوف ترسـل في اليومين المقبلين إلى الجبل.

في الليل، توجـه الرجـال الخمسة في مهمتهم إلى خط سـكة الحديـد، وقد امتطوا خيولهم، واتجهوا غرباً قريباً من الحافة الغربية للجاه.

- انتبهـوا يـا رجـال. الخـط محـروس، قـال صـقر، يوجـد دوريـات علـى طول الخط تراقبه وتحرسه.

اقتربوا من سكة الحديد، فظهرت على البعد مجموعة من الجنود يتضح أنهم دورية ليلية، يقفون جانب سكة القطار حول نارٍ قد أشعلوها للتدفئة. يتحدثون، ويدخنون.

- اترك الخيل بعيدة يا عابد وتعال معي. واجلب كيس البارود والفتيل والقداحة معك... وأنتم أبقوا هنا، راقبوا واحمونا إذا حصل شيء.

يتسلل الرجلان منحنيي الظهر حيناً، ومختبئين وراء الصخور حيناً آخر، وصولاً إلى موقع السكة. بعيداً عن الجنود، ثم انبطحوا على الأرض.

- بسرعة. ضع تحت كل سكة حديد كيس بارود. وطوّل الفتيل .. هيا..

- انتبه أحد عناصر الدورية للجلبة التي أحدثها الرجال، ونظر الجنود إلى ناحية صقر ورفاقه، فشاهدوا ظلال أشباح فوق سكة القطار، هرع الجنود. راكضين، شاهرين أسلحتهم.

- يا الله يا عابد. أشعل الفتيل .... بسرعة.

- اشتعل الفتيل. حتى كان انفجار اللغم، يرفع معه قضبان سكة الحديد في الهواء، مصدراً دوياً ضخماً، مبدداً سكون الفضاء، أيقظ معه بعض البدو النائمين والقريبين من تلك المنطقة.

أطلقت بعض الكلاب القريبة نباحها الخائف، وقد أرعبها الدويّ، فأخذت تعوص وتعوص. لافةً ذيلها فوق رأسها من الخوف.

انبطح عناصر الدورية على الفور. وأخذوا يطلقون النار. بالمقابل كانت مجموعة الحماية تطلق النار على عناصر الدورية كي تؤمن انسحاب صقر ورفيقه.

أصيب عابد بكتفه برصاصة جرحته جرحاً خارجياً. أحس بها ، وكأن سيخاً من النار قد أصاب كتفه.

وضع يده على الجرح وقد امتلأت دماً على الفور.

- أنا أصبت يا صقر.

- أين..؟

- في كتفي.

- اصبر قليلاً ، حتى نصل إلى الخيل. وتابعا الإنسحاب بعيداً عن خط سكة الحديد. إلى وراء الصخور ، بينما كان رصاص الجنود يلاحقهم بشكل عشوائي ، فتئز الطلقات قريباً منهم حيناً ، وتضرب بالصخور البعيدة أحياناً أخرى.

- هل تستطيع أن تركب الحصان.

- نعم ، أستطيع.

- إذا كنت لا تستطيع ، يمكن أن نحملك.

- أركب وحدي على الحصان ، إنما أعطوني معطفاً ، أحسّ بالبرد يسري في كتفي.

هبّ الرجال الثلاثة لنجدة رفيقهم ، فحملوا عابد ووضعوه على الحصان وركبوا خيولهم وابتعدوا بسرعة إلى أعماق اللجاه.



- الحمد لله ، العظم سليم.

- لازم يطّهر الجرح بالأول ، ثم نقوم بتضميده كي يقطع الدم.

احضروا زيتاً وخلاً. وسخنوه على النار بعد أن نزعوا قميص عابد عن جسمه، وأشار أحدهم أن يضع عابد قطعة قماش في فمه كي يعضّ عليها.

- بلاها ... قال عابد.

- ضعها في فمك. أفضل. وعضّ عليها حتى تتحمل الألم، ثم قام رجلان وثبتا جسد عابد جيداً إلى الأرض حيث صبّ المعالج الخلّ أولاً على الجرح، فصاح عابد بصوتٍ مكبوت من الألم وتلوّى.

- اصبر .. اصبر.

- ثم قام بتنظيف الجرح جيداً، ومن ثم دهنه بالزيت وضمده بشكل جيد.

استراح الجريح من الألم وغفا بعد قليل.

- غطوه، خلّوه ينام، واخرجوا من الخيمة، أشار الرجل المعالج بذلك إلى بقية الرجال.



- ٣ -

كانت الجبال الجنوبية الشرقية، تظهر في المساء، بلونها الأزرق الداكن، وقد أكسبها لونها البازلتي، طابعاً وقوراً. بهدوءها ورحابة صدرها. بينما بدا تل شيحان بزرقته المعتادة. جبلاً، يعلو عن جميع ما يحيط به من التلال. بشكله المخروطي، البديع، وارتفاعه في السماء، بكل هيبةٍ ووقار، وكأنه جيء به من مكانٍ آخر ووضع في هذه الأرض، قد عبثت برأسه غيوم السماء، حيث محت الجزء العلوي منه، وظهر رأس التل فوق الغيوم وعندما تتقطع الغيوم ويبقى بعضٌ منها في وسط التل، يبدو كأن التل قد انقسم إلى قسمين، رأسه في السماء وقاعدته في الأرض.

أما في الأفق البعيد. فتظهر بعض التلال البعيدة، يميز من بينها تل المسيح عالياً، مخروطي الشكل. كخوذة جندي تبدو في أعلى رأس الإنسان، بمقامه الحجري العتيق الذي يحكي قصص زوارٍ ونذورٍ لأناسٍ قدموا راجلين أحياناً وعلى دوابهم أحياناً أخرى، قد أتوا إليه، رجالاً ونساءً وأطفالاً، لإيفاء نذورهم، تبركاً بصاحب المقام، وتقرباً إلى الله تعالى.

يباتون ليلتهم، في مقامه المرتفع، حيث تعصف الريح في الليل، وتزمجر في شباك المقام الغربي، تهدد الشموع المشتعلة بالانطفاء... إلا أن الزوار ينامون ليلتهم القدسية، باطمئنان تام، وراحةٍ نفسيةٍ عظيمة. ينسون معها مشاق الوصول إليه من قراهم البعيدة. مقتنعين بالقول المأثور (الأجر على قدر المشقة).

- يا سلام يا عابد ...! ما أصفى الجوّ هنا، وما أهدأ هذا المكان. فلا حركة، ولا ضوضاء. حتى يكاد المرء أن يسمع دقات قلبه.

كانا يتحدثان، وقد جلسا جانب صخرة، وأسندا رأسيهما إليها. ثم أشعل صقر سيجارة، وأعطى عابد واحدة أخرى. أخذا يدخنان وهما يتأملان النجوم.

- لكن اللجاه موحشة، وفيها ضباع ووحوش كثيرة.

- ضباع اللجاه، أحسن من بعض الناس يا عابد، المهم. كيف جرحك اليوم؟

- الحمد لله، أحسن.

- ابنك، أين وضعته.

- وضعته عند زوجة جارنا، هذا الطفل صغير، يحتاج إلى أم، وأمه ماتت كما تعلم، قتلت بقنابل الطائرات.

- والله يا عابد، أنا اشتقت للزوجة والأولاد، وأفكر أن أذهب إلى القرية، كي أزورهم وأطمئن عليهم.

- لكن دير بالك، يمكن يكون فيها جيش.

في اليوم التالي، كانت مجموعة الثوار تتجول في مناطق قريبة من الصوانة. استأذن صقر أن يذهب إلى القرية لبضع ساعات، ثم يعود إلى رفاقه.

- لكن يا صقر. هذه مخاطرة.

- إذا كان فيها جيش لا أدخلها، لا تخافوا.

اقترب صقر من القرية ممتطياً حصانه، فشاهده أحد الرعاة وعرفه بأنه صقر السالم، فصاح به:

- إلى أين يا صقر...؟ البلد مليانه عساكر... ارجع. توقف صقر وفكر، إذا كان لا يستطيع أن يدخل إلى القرية بسبب العساكر، فإنه يستطيع أن يصل إلى غدير القطا الواقع شرقي القرية كي يسقي حصانه ويتبرد بعض الشيء. فقال للراعي.

- سأذهب إذاً إلى غدير القطا أسقي الحصان وأعود.

- ارجع يا صقر أحسن لك...!

لا تخاف، لن يشاهدوني، سأبقى بعيداً عن القرية. تقدم صقر من القرية حذراً، ووصل إلى غدير القطا وأخذ حصانه يعبّ الماء. وما هي إلا دقائق، حتى شاهد مجموعة من الجنود الخيّالة وقد انطلقوا من القرية متجهين إليه بعد أن شاهده بعضهم يقترب من القرية. وبسرعة، امتطى صقر ظهر حصانه وأطلق له العنان.

بدأت المطاردة. وأخذت الطلقات تئز قريباً من صقر وتمر فوق رأسه، إلا أن إحدى الطلقات أصابت رأس الحصان. ناحية الأذن منه. فخدشته خدشاً إلا أنها كانت كافية لإيقاع الحصان على الأرض.

طار صقر عن ظهر الحصان عدة أمتار وسقط على الأرض، وما أن نهض حتى شاهد الجنود وهم يسرعون كي يلقوا القبض عليه.

أمسك عنان الحصان وتفقده بسرعة، فوجد خدشاً أعلى الرأس، ناحية الأذن. ينزف دماً.

كانت تصل إلى سمعه صيحات بعض الجنود المتطوعة مع الفرنسيين، امسكوه ..... امسكوه .... لا تدعوه يهرب.

ماذا يفعل..؟ تذّكر كلام أخيه ماجد عندما قال:

- إذا جرح الحصان، وكان جرحه لا يزال ساخناً، فإنه يستطيع أن يركض طيلة النهار. شريطة أن لا يبرد الجرح، قفز إلى ظهر الحصان فوراً. وأخذ يعدو في السهل الشرقي للقرية على مرأى من الجنود.

- وما هو إلا قليلاً، حتى رأى مجموعة الثوار قد اقتربت منه وجاءت لنجدته وقد سمعوا صوت إطلاق النار فعلموا أن الجنود الفرنسيين يطاردون صقراً.

هنا، انقلب الموقف. أصبح المطارَد مطارِداً والمطارِد طريداً.

انكفأ الجنود على أعقابهم إلى داخل القرية، وقد تبعهم الثوار وراء صقر.

حاول الجنود أن يتمسكوا بالقرية. ويخوضوا القتال وهم بداخلها، إلا أنهم عرفوا أنهم سيخسرون المعركة. وكان من بينهم بعض الجنود المتطوعة، فولوا الأدبار، خارجين من القرية.

تابع الثوار الجنود المنهزمين وهم يتبادلون إطلاق النار من على ظهور الجياد.

لحق صقر أحد الجنود المتطوعة وصاح به أن يستسلم دون أن يضطر إلى قتله. إلا أن الجندي واصل العدو، وما أن اقترب حصان صقر من

حصانه حتى التفت الجندي إلى صقر وضربه بمخلاة الحصان، أصابته في صدره كادت توقعه عن ظهر الحصان.

عندها حمل صقر بندقيته وأسرع وراء الجندي من جديد. وضربه بأخمص البندقية على رأسه، أطاحت به بعيداً عن ظهر الحصان.

قفز صقر إلى الأرض. وربض على صدر الجندي، ممسكاً عنقه بيديه. استسلم الجندي وأخذ يتوسل.

داخل عليك، اتركني. عندي أولاد.

ضغط صقر على عنقه غاضباً .. يا خائن .. لمن بعت نفسك؟

- الرحمة، توسل الجندي من جديد. موضحاً.

- أنا أطلق الرصاص بالهواء. صدقني، حتى أوهم الفرنسيين إنني أطلق عليكم.

أرخى صقر يديه عن عنق الجندي ثم قام بتقييده بحبل كان معه وعاد به إلى القرية.

تابع الثوار مطاردة بقية الجنود إلى غربي القرية حيث عادوا بعد نصف ساعة وهم يجرّون معهم ثلاثة جنود أسرى وقد كسبوا عدداً من البنادق الفرنسية غنموها من الجنود الهاربين والذين قتلوا أثناء المطاردة.

كانت هذه الغارة المفاجأة للثوار على قرية الصوانة والتي لم يكن مخططاً لها، قد تمكنت من تحرير القرية مؤقتاً من الفرنسيين، حيث دخل الثوار إلى منازلهم وشاهدوا أعتدة الجنود وذخيرتهم المرمية على الأرض، في أماكن إقامتهم، حيث لاذوا بالفرار بسرعة.. حتى أن الطعام.

كان موضوعاً على الأرض قبل أن تحدث المعركة التي انتهت بهزيمة الجنود وخروجهم من القرية، دون أن يتمكنوا من تناول طعامهم.

تأمّل الثوار الطعام الموضوع، والذي كان عبارة عن خاروفين مشويين ومجموعة كبيرة من الدجاجات.

- العمى بعيونهم... لم يبقوا دجاجاً في القرية. ولا أبقوا خرفان. قال أحد الثوار معلقاً.

- يا اللّه يارجال. تفضلوا كلوا نصيبكم... أنتم تستحقون أكثر من – هؤلاء الأنذال – وكما يقول المثل (بقلب السبع ولا بقلب الضبع) قال صقر ذلك مداعباً الثوار وداعياً إياهم إلى مائدة الطعام الموضوعة سلفاً.

- اقتاد الثوار الأسرى الأربعة معهم إلى اللجاه ووضعوهم في بيت أحد الثوار في قرية السالمة الواقعة في عمق اللجاه. بينما تخلّف نايف وصقر وعابد في القرية للتزود بالمواد التموينية وقضاء ليلة مع زوجاتهم وأولادهم.

- سخّنت زوجة صقر الماء كي يستحم زوجها.. امتلأ جو الغرفة ببخار الماء الذي كانت زوجته تسكبه من طاسة نحاسية على رأس وجسد صقر. لبس ثياباً نظيفة ورقد في الفراش إلى جانب زوجته.

غمره شعور لذيذ بالانتشاء. أحسّ براحة تامّة فضم زوجته إلى صدره. أطلقت تنهيدة عميقة.... أحس معها أن هناك وجهاً آخر للحياة. وجهاً جميلاً. طرياً. هنيئاً، يختلف عن الوجه الذي غالباً ماعرفه في حياته. من السفربرلك إلى المطاردة مع الفرنسيين إلى هذه الحياة المضنية التي تكتنف العيش في اللجاه بخشونة صخوره وقساوة العيش فيه.

- آه يا صقر. متى نستطيع أن نعيش كزوجين لا يقلقهما شيء..؟ ننام في فراشٍ واحدٍ. ولا يهددنا الفراق بأي لحظة كما هو عليه الحال الآن..؟

- على أية حال. أنا سألتحق غداً بالثوار في اللجاه، هكذا اتفقت مع نايف وعابد.

- لماذا هذه السرعة..؟ سألت بقلق. ابقَ يوماً أو يومين آخرين. ماذا يضير ذلك..؟

- لا أستطيع. يمكن أن يدخل الفرنسيون القرية غداً مجدداً.... إنهم لن يسمحوا ببقائها في يدنا. لكن اسمعي:

- يمكن أن لا يطول بقاؤنا في اللجاه. نحن نفكر أن نذهب إلى شرقي الأردن. ونقيم في منطقة الأزرق. لأن الوضع في اللجاه أصبح صعباً. وبعض العائلات بدأت ترحل إلى الأزرق. لأن الأخبار تؤكد هجوم الفرنسيين على قرية السالمة، وهي آخر القرى التي يعتمد عليها الثوار كقاعدة لهم... وإذا ما رحلنا إلى منطقة الأزرق سأبعث وأخبرك بذلك. وأنتِ توافيني مع الأولاد. وتجلبين معك ما نحتاج إليه.

في صبيحة اليوم التالي. كان صقر ينهض باكراً يرتدي الألبسة ويحمل سلاحه، ممتطياً صهوة جواده مع رفيقيه نايف وعابد، عائدين إلى اللجاه.

- ٤ -

كما تضيق الدائرة حول الأسد المحاصر في عرينه من قبل الصيادين وهم يقتربون منه، حاملين شباكهم وأسلحتهم لاصطياده دون أن يتجرؤوا على اقتحام عرينه مباشرة. كانت الدائرة تضيق حول الثوار في اللجاه.

أخذت المدفعية موقعاً ثابتاً في جهات الجنوب والغرب تقصف كل يوم مواقع الثوار، والطائرات تلقي عليهم تحية الصباح. تبعثر تجمعاتهم وتقتل رواحلهم وحيواناتهم التي يعتاشون منها وتجعل سبل الاستمرار من الصعوبة بمكان. حتى أن موادهم الغذائية أصبح الحصول عليها أمراً عسيراً.

توجهت ثلاث طائرات في صبيحة أحد الأيام التالية لهجوم الثوار على قرية الصوانة قادمة من الجنوب الغربي وألقت حمولتها فوق مواقع الثوار في الجهة الشرقية، ثم اتجهت شمالاً. ثم استدارت كاليعاسيب الصغيرة وعادت من جديد.

ركض صقر ورفاقه واستلقوا على الأرض وراء الصخور وأخذوا يطلقون النار من بنادقهم على الطائرات.

كانت طلقات البنادق تصيب الطائرات تخترق أجنحتها الخشبية وذيلها. إلا أنها تستمر في التحليق. محاولة استخدام رشاشاتها من جديد. حتى أن رأس الطيّار كان يبدو واضحاً بخوذته السوداء ورشاشه المنصوب أمام طائرته.

إلا أن إحدى الطلقات أصابت خزان الوقود في إحدى الطائرات. اشتعلت النار في جسم الطائرة. واختل توازنها. ثم اتجهت جهة الغرب.

محاولة الهبوط على الأرض في منطقة تخلو من الصخور بينما اتجهت الطائرتان الأخريان عائدتين باتجاه الجنوب، تمكن الطيار من إنزال طائرته إلى الأرض غير المستوية. ثم اصطدمت بالصخور ومالت إلى جانبها.

ركض صقر ورفاقه ناحية الطائرة المحترقة. وما أن وصلوا إلى الطيار حتى كانت النيران قد أتت عليه ولفظ أنفاسه.

- لم نلحقه حياً. قال احدهم معلقاً.

وبعد أن تأمّل الثوار الطائرة المحترقة وقائدها المرمي إلى جانبها محترقاً أيضاً. استداروا للعودة.

- إلى أين يا رجال.. قال صقر...؟

- ماذا تريد يا صقر..؟

- يجب أن ندفنه...!

- لماذا ندفنه ... دعه هكذا ... تأكله الوحوش.. هذا عدوّ.

- لا يا رجال .. كان عدوّنا عندما كان حيّاً. أما الآن، فهو تحت رحمتنا، وفي الموت يتساوى الجميع. الأصدقاء والأعداء.

- لماذا لم يقم الفرنسيون بدفن جثث شهدائنا في المسيفرة..؟

- هذا هو الفرق بيننا وبينهم. نحن نحترم إنسانية الإنسان، هيا ساعدوني كي نحفر قبراً له.

بدأ صقر ورفاقه بحفر قبر للطيار الفرنسي القتيل، ثم حملوه ووسدوه الحفرة قريباً من طائرته المحترقة.

نظر صقر إلى الطيار فشاهد قلادة معدنية معلقة في عنقه. انتزعها من عنقه ووضعها في جيبه على سبيل الذكرى.

توجه الثوار بعدها إلى قرية السالمة، حيث اجتمع قسمٌ منهم في مضافة أحد رجال القرية من الثوار يتدارسون الوضع ويتشاورون في كيفية التصدي للفرنسيين، إذا ما هاجموا القرية.

دخلت امرأة إلى المضافة تجرّ ذيل رداء رأسها على الأرض وقالت بلهجة حماسيّة:

- السالمة لازم تبقى سالمة يا رجال... والذي لا يسلم جسده وروحه للموت. يسلم شرفه وكرامته، يجب أن لا نسمح للفرنسيين أن يدخلوا القرية.

- حيّاك الله يا أخت الرجال... ابشري.

قال الرجال جميعاً.

في اليوم التالي، قدم أحد الرجال إلى قرية السالمة وهو يرفع علماً أبيض، أحُضر الرجل إلى الثوار حيث تبين أنه وسيط قد أرسله الفرنسيون لإطلاق الأسرى الأربعة الذين أسرهم الثوار في معركة الصوانة.

قال أحد قادة الثوار مبيناً مطالب الثوار لإجراء المبادلة مع الأسرى.

- نريد مائة ليرة ذهبية وعشر بنادق حربية بالإضافة إلى عشرة خيول.

- قال الوسيط:

- الفرنسيون لن يدفعوا ذهباً لفك أسرى غير فرنسيين في الأصل. ولو كانوا يخدمون في الجيش الفرنسي، كما أنهم لن يسلّموا سلاحاً لمن يحاربهم... أما الخيول فإن أمرها سهل تأمينه.. ماذا تريدون غير ذلك؟

قال صقر:

- نريد اسقاط مقدار الغرامة الذهبية التي تفرضها السلطات على أهل قرية الصوانة. وأن يعود الشيخ مصطفى إلى القرية إن صحته لا تتحمل العيش في اللجاه دون أن يعترضه أحد... كما أريد أنا شخصياً أن تأتي زوجتي وولداي إلى في اللجاه دون أن يمنعهم أحد من القدوم.

ذهب الوسيط وعاد في اليوم التالي حاملاً موافقة الفرنسيين على شروط المبادلة وضمانة التنفيذ. والتي كانت أن يبقى الوسيط لدى الثوار كرهينة إلى حين تحقيق الشروط المتفق عليها، وهي وصول عائلة صقر وولديه إلى اللجاه، وعودة الشيخ مصطفى إلى القرية.

بعد عدة أيام. كانت الطائرات تلقي قنابلها فوق قرية السالمة. هرع الرجال إلى أسطحة المنازل. وبدؤوا يطلقون النار على الطائرات.

ارتفع بكاء الأطفال وحيرة النساء اللاتي أخذن يتراكضن وهن يحملن أطفالهن... أين يختبئن..؟ حيث أن بيوت الحجر غير آمنة من الانهيار نتيجة القنابل. تراكضت النساء كيفما اتفق مع أطفالهن وصرر حوائجهن اتجاه المغاور الشرقية والمجاورة للقرية، لأنها الآمنة في مثل هذه الأحوال.

ما أن أنهت الطائرات القصف وعادت أدراجها بعد أن فقدت واحدة منها سقطت بعيداً عن القرية. حتى بدأت المدفعية تقصف القرية قصفاً شديداً. أكثر من كل المرات السابقة التي تعرضت فيها القرية للقصف

الأمر الذي يدل على أن هذه الشدّة تعني أن الفرنسيين عازمون على مهاجمة القرية واحتلالها.

انتشر الثوار حول محيط القرية وداخلها، حيث احتلوا الأسطحة وقمم الصخور والممرات الإجبارية استعداداً لصد الهجوم.

على البعد، ظهرت كواكب الفرسان. يتقدمهم المشاة وقد بدأوا يحيطون بالقرية من عدة جهات.

بدأ إطلاق النار بين الطرفين شديداً، كان الجنود المهاجمون يسقطون صرعى رصاصات الثوار. إلا أنهم يواصلون التقدم. لقد كانت الأوامر صارمة. تقتضي باحتلال القرية بأي ثمن.

ترجل الخيالة الفرنسيون عن جيادهم وتوسدوا الأرض.

أما الثوار، وقد كان الهجوم شديداً، فقد ركزوا قسماً من جهودهم لفك الحصار، كلفوا فريقاً منهم بحماية النساء والأطفال الذين اختبأوا في المغاور لإخراجهم والذهاب بهم بعيداً. جهة الشمال.

استمرت المعركة إلى فترة ما بعد الظهر. حيث أصبح القتال يدور داخل بيوت القرية وفي أزقتها التي أخذ الثوار في إخلائها تدريجياً.

كان واضحاً من شراسة المعركة، أن مجموعة من الضباط الفرنسيين يقودون الهجوم وعلى رأسهم جنرال، كان معروفاً بخبرته العسكرية واعتداده بنفسه، وقد أمر هذا الجنرال ضباطه بإطلاق النار على أي جندي يتلكأ أو يتراجع أمام الثوار.

اجتمعت قوات الجيش وسط القرية. يحيط بها الدمار وجثث عشرات الجنود الفرنسيين الذين سقطوا عند مشارف القرية، وبين أزقتها، بالإضافة إلى جثث عشرة من الثوار الذين قتل عدد منهم بالحراب بعد أن نفذت ذخيرتهم وأحاط بهم الجنود من كل جانب.

كان الجنرال يسمع باسم تلك المرأة التي قتل زوجها وواصلت هي القتال مع الثوار وشحذ عزائمهم لمواصلة القتال.

أرسل وراءها. بعد أن علم من بعض السكان المتبقين، أنها ما زالت تقيم بالقرية مع ولديها الصغيرين.

أثارت بطولة تلك المرأة في نفس الجنرال الفضول لديه... أحب أن يتعرف بجان دارك اللجاه.

تلك المرأة التي ذكرته بالبطلة الفرنسية الشهيرة التي قادت النضال ضد الاحتلال الانكليزي لأجزاء من بلدها، وقد كافأها شعبها بأن رفعها إلى رتبة القديسين.

أرسل وراءها.

جاء الرسول يخبر أنها ترفض القدوم إليه.

ذهب الجنرال بنفسه إلى بيتها. احتراماً منه للبطولة ولإظهار نبله المستمد من روح النبالة الفرنسية.

دخل البيت. رآها واقفة. رفع طاقيته بالتحية ومد يده مصافحاً.

- ماذا تريد..؟ أجابت المرأة.

- قل لها: إني معجب بشجاعتها، وجئت كي أتعرف عليها، وأقول لها:

- إن فرنسا، تقدر الشجاعة وتحترمها، قال الجنرال ذلك للمترجم.

- إلا أن المرأة أدارت له ظهرها. وأمسكت بيدها أحد الولدين اللذين يقبعان بالغرفة.

أنزل الجنرال يده المعلقة في الهواء. نظر حوله في الغرفة، رأى طفلين صغيرين، يلبسان الأسمال وسط محيطٍ يخلو من كل شيء، سوى الشجاعة.

فقال وهو يغادر البيت .. خسارة ..

الفصل الرابع

- ١ -

- بعض الثوار انخدعوا بالعفو الذي أعلنه الفرنسيون، وعادوا إلى قراهم، يا رجال... ماذا ترون...؟

- ماذا يستفيدون..؟ حتى يعيشوا أذلّاء تحت رحمتهم، قال صقر متابعاً حديثه:

- بالنسبة لي: سأذهب أنا وعائلتي معي والتحق بالثوار الذين سبقونا إلى منطقة الأزرق. ولن نبقى تحت رحمة الفرنسيين وأزلامهم.

- ونحن معك أيضاً يا أبو فهد. قال بعض الثوار في نهاية الحديث اتفق الثوار على يوم معين لاصطحاب عائلاتهم والهجرة معاً إلى الأزرق، شرقي الأردن.

اتجهت القافلة ذات مساء، تحمل معها بعض عائلات الثوار، معهم أمتعتهم الخفيفة والضرورية حيث كان من بينهم نايف الظاهر وعابد النجار بالإضافة إلى صقر وزوجته وولديه فهد ويمنى.

سارت القافلة بمحاذاة التلال الجنوبية للّجاه متجهة إلى الجنوب الشرقي. محاذرة المرور في القرى التي يمكن أن يتواجد فيها الجيش.

مرت القافلة قريباً من تل شيحان. بدا مهيباً هائلاً مع الغسق. وقد ظهر بصيص ضوء في قمته.

ربما بعض الزوار الذين قدموا كي يوفوا بنذورهم قد أشعلوا الشموع كي يقضوا ليلتهم فيه.

ربما يكون خادم المقام الشيخ قد أشعل قنديله الزيتي العتيق.

بدا التل كمنارةٍ ضخمةٍ، أو عينٍ كبيرةٍ ترقب المحيط وتخاطب أبناءها... أن ها هنا أنا أقيم. وإني أراكم يا أبنائي، وإن كنت لا أرى، فأنتم ترونني وترشدكم منارتي إليّ، وتدعوكم كي تعودوا إلى بلادكم، ولو ذهبتم بعيداً إلى حين.

نظر صقر جهة الجنوب، حيث تقع قرية الصوانة غزته رغبة عارمة أن يكون فيها تلك الساعة، يراقب سحب الدخان وهي تتصاعد من أسطحة المنازل حين المغيب... رأى نفسه يقف فوق سطح بيته وهو ينظر إلى غروب الشمس وقد أحس ببرودة المساء في جسده. يضمّ طرفي فروته إلى جسده كي يحسّ بالدفء، وقد ظهر في الأفق لمعان بعيد.

وهاهو أخوه ماجد يصعد درج المضافة وهو يتنحنح أحـ ... أحـ .. أحـ .. قد أشعل القنديل وعلّقه في زاويته المعهودة في المضافة. يراقب حركة الناس والأنعام التي أخذت تأوي إلى بيوتها ومواضعها بعد يوم طويل.

وها هي البقرات قد عادت، ونطحت برأسها بوابة الدار وهي تخور لتقف في الحوش، خلف المضافة وهي تتابع اجترار طعامها.

ثم رأى نفسه يرقب في السماء رفّاً من طيور القطا وهو يطير محلقاً هادئاً فوق القرية يريد أماكن الشرب فيظل يراقبه حتى يعلم أنه حطَ رحاله فوق غدير القطا، فكّر متسائلاً:

هل يقيّض لنا، أن نعود من جديد إلى الصوانة..؟

هل تعيد الحياة ترتيب نفسها..؟ في هذا الغموض الطاغي، الذي حرمنا هناءة العيش..؟

- الوداع يا قرية الصوانة الحبيبة.
- الوداع يا وادي الذهب الهدّار.
- الوداع يا غدير القطا.

حطّت القافلة رحالها في الصحراء. بعيداً عن الجبل ومواقع الأحداث وكان قد سبقتهم إلى هناك قوافل أخرى من الثوار مع عائلاتهم. أقاموا إقامة بدائية بخيم من خيم البدو الرحّل.

البعض منهم أقام في خيم شبه عسكرية. علم أنها أرسلت كإغاثة ومساعدة من بعض المتعاطفين مع الثورة.

قيدت أسماء العائلات القادمة ووزع عليهم بعض المساعدات القليلة والضرورية.

أعطيت عائلة صقر بطانيتين اثنتين ووعدت بإعطائها بعض القمح والرز، حسبما تتوفر المواد التموينية القادمة من عمان.

في الصباح، جاء نايف وعابد إلى خيمة صقر حيث جلس معهم على الأرض أمام الخيمة.

- كيف الأحوال يا أبو يوسف؟
- تقاسمنا أنا وعابد مع ثلاثة آخرين خيمة واحدة.
- كيف رأيتم أحوال الناس هنا..؟

- يعيش الناس هنا على المساعدات، وقسم منهم اقتنى لنفسه غنماً أو ماعزاً حتى يقدر أن يعيش، كما يخرجون للصيد أحياناً كي يستطيعوا البقاء أحياء.

- أنت وعيالك يا أبو فهد كيف وضعكم..؟

- كما ترون.. البارحة نمنا على العتم، بدون ضوء وقد خفت على الأولاد من الأفاعي والعقارب.

- اردم تراب حول الخيمة، ورصرصها جيداً، حتى لا يدخل أي شيء إليها.

- خبزت زوجة صقر خبزاً، أعدته على عجل كي تطعم الرجال.

- تفضلوا كلوا. ولا تلاحظوا علينا كيف ما كان الخبز.

- نعمة الله يا أبو فهد. الذي يوجد خبز نأكله في هذا المكان، بعد أيام. نبقى نذهب إلى الصيد ونرى ما ييسره الله معنا.

قبل الظهر. دعي صقر ورفاقه إلى اجتماع، قيل إن بعض الضيوف قد أتوا من سورية لزيارة المجاهدين في منفاهم.

دخل صقر ونايف وعابد إلى الخيمة الكبيرة التي يجلس فيها الضيوف بصحبة المنصور، وبعض الرجال الذين كانوا يجلسون عن يمينهم وعن شمالهم.

كان بعض الضيوف يلبسون البذلات الإفرنجية وقد وضع بعضهم الطربوش على رأسه. وواحد منهم كان يضع نظارة فوق عينيه.

- السلام عليكم يا رجال.

- وعليكم السلام .... تفضلوا ... تفضلوا ... نهض الجميع واقفين. تفضلوا .. تفضلوا..... اجلسوا.

تحدّث المنصور وقال:

- نرحب بالضيوف الكرام، إخواننا في الوطنية. الذين تكبدوا مشاق السفر، وقدموا إلينا ليشاركوننا عيشنا، ويطلعون على حالنا، ثم استطرد قائلاً.

- ولقد أجرينا بعض الاتصالات مع بعض أحرار العرب وإن شاء الله ستأتينا المساعدات، وتخفف من معاناتنا ثم أننا نعتذر للضيوف عن عدم إمكانية تقديم الواجب الذي يليق بهم، وإن شاء الله نستقبلهم في بلادنا. بعد العودة المظفرة....

بعدها قام أحد الضيوف وأخرج منديلاً من جيبه ومسح نظارته ثم عاد ووضع نظارته من جديد على عينيه وقال:

- أيها المجاهدون... أيها الثوار.... يا من فضلتم عيش التقشف والحرمان على عيش الرغد مع الهوان. نحييكم تحية الأبطال، ونشدّ على أيديكم، ونشاطركم منفاكم هذا. ولقد شكلنا لجاناً للمساعدة في عمان والقاهرة، وهي في طريقها إليكم..؟ وإن شاء الله تعودون إلى الوطن وأنتم رافعي الرأس، وسنعمل على حمل السلطات الفرنسية لإصدار عفوٍ عام عنكم. كي تتمكنوا من المساهمة في إعادة بناء الوطن من جديد.

بعد ذلك تمّ التقاط بعض الصور التذكارية للجميع.

عاد صقر إلى خيمته فسألته زوجته.

- ماذا حصل بالاجتماع..؟

- لم يحصل شيء... أتى بعض الضيوف. ووعدوا بتقديم مساعدات يقومون بجمعها في القاهرة وعمان، إن شاء الله تتحسن أحوالنا في المستقبل، وقالوا أيضاً أنه يمكن أن يصدر عفو عام عن الجميع من قبل السلطات الفرنسية.

في اليوم التالي. قدمت امرأة بدوية تبيع اللبن. إلى المخيم، دخلت إلى خيمة صقر حيث استأنست بزوجته وأولاده، فجلست على الأرض تتحدث إليهم وتسألهم عن أحوالهم فقالت متألمة:

- ياويلي كيف جئتِ بالأولاد من الجبل لهذا المكان؟

تعال يا بنيّ لعندي، يا حبيبي، واحتضنت فهد وقبلته.

خذ اشرب، وسقته قليلاً من اللبن.

- خليه عنك يا أم.... ايش الله يخليه ....؟

- أم جابر . الله يجبر بخاطرك، ويفكّ عزبتك ياابن الأوادم.

- من أي عرب انتِ.

- من بني صخر.

- من بني صخر..؟ هؤلاء أصدقاء لنا. كانوا دائماً يأتون إلينا في الجبل نبيع ونشتري منهم خيل وسلاح وغيره. والبعض منهم اشترك معنا في الثورة.

- شو تريدي ياخيّتي، قول لي ولا تستحي.

- الله يكثّر خيرك يا أم جابر.

- هاتي وعاء لأصب فيه لبن للأولاد.

في المساء، اشتدت الرياح. وأصبحت قوية تذرو الرمال حتى تكاد تعمي العيون. وقل الجميع إلى خيمهم وقد انخفضت درجة الحرارة بشكل ملحوظ، وأصبح الجو بارداً.

- ما هذا الجو..؟ يا لطيف. بالنهار حرارة مرتفعة. وبالليل برد قارس.

- اضطجع صقر داخل خيمته على جنبه وأخذ يدخن. بينما كانت الريح تدوّم في الخارج.

جلبت الريح صوت عواء ذئب. أخذ يقترب من المخيم.

كانت ابنة صقر يمنى. لم تنم بعد. سألت والدها بخوف:

- صوت شو هذا..؟

- هذا صوت ذئب.

- ذئب..؟ كيف بيكون ..؟ بيخوّف شيء؟

- الذئب مثل الكلب، وهو يعوي. يمكن يكون جائع؟

انكمشت الطفلة على نفسها، ودست جسمها تحت الغطاء. ربّت صقر على رأس ابنته وابتسم لها.

نامي ولا تخافي. الذئب يخاف من الضوء ويهرب بعيداً ولا يستطيع أن يهاجم الإنسان.

غفت الطفلة ونامت وهي تضع يدها تحت خدها، بينما كانت أمها تغلق الخيمة جيداً حتى لا يدخل شيء إلى داخلها.

- أنت أيضاً يا أبو فهد ثيابك رقيقة، تعال وضع البطانية على أكتافك.

- الفروة وحدها تكفي، تغطّي أنت والأولاد.

- أم جابر، اللّه يكثّر خيرها يا أبو فهد. اليوم الأولاد شربوا لبناً ليّن معدتهم.

- حرمة محترمة يظهر عليها. اللّه يكثّر الناس الأوادم.

- ثم تابع:

- اتفقت مع عابد ونايف أن نخرج غداً إلى الصيد. إن شاء اللّه نتوفق ونستطيع أن نحصل على صيد جيد.

في الصباح كان نايف وعابد يناديان على صقر كي يخرج من خيمته.

مشى الثلاثة راكبين خيولهم ويحملون بنادقهم على أكتافهم.

- أين نذهب يا رجال.؟

- نذهب إلى مسرح الغزلان. على طريق ديرة ابن سعود.

ساروا في طريق مسرح الغزلان وهم يرقبون أرض الصحراء أمامهم، المملتئة بأعشاب الشيح والنباتات الصحراوية التي تشكل أجمات متباعدة عن بعضها قليلاً. وما أن تقترب الخيل من أجمة ما من الأجمات المنتشرة حتى يفرّ منها طير ما أو يقفز أرنباً من الأرانب مذعوراً يركض ليختبئ في أجمةٍ أخرى، وقد يخرج من الأجمة ثعبان خائف يحاول أن ينزل في جحرٍ من الجحور. أو يدخل في أجمة من الأشواك الصحراوية التي تحجبه عن الأنظار.

أما الخيل ، فهي عندما تشاهد الثعبان فإنها تقف مذعورة. لا تبرح مكانها ، وترفض أن تتقدم.

يعلّق أحدهم.

- يا سبحان الله ... حتى الحصان يعرف أن الأفعى عدوّ للإنسان والحيوان. فهو يخشاها لمعرفته بغريزته أنها تضمر شراً....!

أما الغزال، فإنك عندما تشاهده، فإنه ينتابك شعور بالحب وبالرغبة العارمة في أن تحتضنه وتقبله.

وعلى ذكر الغزلان، هل صحيح أن المسك يستخرج من الغزال... سأل صقر؟

- صحيح، لكن من ذكر الغزال لا من الأنثى..! قال نايف ذلك.

- لماذا..؟ هل الأنثى لا يوجد فيها مسك...؟ سأل عابد مستوضحاً وغامزاً بطرف عينه.

- الأنثى كلها مسك. أجابه نايف مداعباً.

- هذا الطريق. يؤدي إلى ديرة ابن سعود ، وأنت يا نايف تحفظ قصائد شعر ، قل لنا قصيدة ابن الرشيد التي بعث بها لابن سعود ، ماذا يقول فيها؟

- والله يا أبو فهد. أنا أحب الشعر كثيراً ، لكن المره والأولاد أتوا على بالي أكثر من الشعر.

- لماذا لم تحضرهم معك.؟

- أحضرهم إلى هنا يا رجل...! ألا يكفي عذابي أنا حتى أحضر زوجتي وأولادي أيضاً... صحيح إنني أعاني من الفراق كما هم يعانون، لكن بقاءهم في الجبل أفضل.

ثم إننا الآن نقيم هنا ولا نعرف بعد مدةٍ من الزمن أين نصير.

- انظروا ... انظروا.... طيور القطا.

- - يا الله، ما أجمل منظر رف القطا، انظروا كيف يطير.! كأنه رأس سهم، يطير بنفس السرعة السرعة. نفس الاتجاه. لا يصطدم طير بآخر.

- يمكن أن يكون الفرنسيون قد قلدوا الطائر عندما صنعوا الطائرة..؟

- قبل الفرنسيين، يقال إن أحد العرب القدماء حاول أن يطير، وصنع لنفسه بذلة من ريش، وصعد إلى قمة جبل وقفز محاولاً الطيران، إلا إنه لم ينجح بسبب عدم معرفته أهمية الذيل في توجيه الطائر.

- وهل تستهين أنت بقيمة الذيل..؟ الذيل له أهمية في توجيه الرأس، فإن فقد الذيل، فقد الرأس دفة التوجيه، ودق على رأسه بإصبع يده.

- هل مات بعدما سقط الرجل الذي تتحدث عنه، ذلك الطيار الأول؟

- لا أعرف... المهم أنه حاول أن يصنع الطائرة.

- من فكّر بصنع الطائرة لا يعنينا الآن. هيا أطلق يا نايف النار قبل أن يبتعد الرف، قال عابد.

- لا تطلق يا نايف، الرفّ بعيد. ثم إن هذا الرف بيذكّرنا ببلادنا، وتابع حديثه.

تذكرون يا شباب، عندما كنا صغاراً. كان القطا يأتي إلى قريتنا رفوفاً رفوفاً، وعندما نراها تأخذ في الصياح والغناء. (مد حبلك يا قطا لا فراش ولا غطا) ظناً منها أنها تستمع لصياحنا وغنائنا وتستجيب لندائنا وتهبط إلى الأرض.

وعندما يسقط القطا على الماء بفعل العطش، فإنه لا يأبه إذا أطلقت عليه النار. حتى لو أمسكته حيّاً، لأن العطش قد أخذ منه مأخذاً بعد سفرٍ طويل، حتى أن الشيخ مصطفى كان ينهانا أن نصطاد الطيور وهي تشرب ويقول لنا:

- حرام عليكم، لا تصطادوها وهي تشرب. حتى أن الحيّة يا عمي تصبر على عدوّها حتى ينتهي من الشرب.

- ها هو مسرح الغزلان، هيا ننزل.

نزل الثلاثة وجلسوا على الأرض، أخذوا يدخنون وهم ينظرون حولهم في مختلف الاتجاهات. وبينما هم جالسون شاهدوا غزالاً صغيراً توقف أمامهم مدهوشاً من المفاجأة.

- انظر .. انظر ... وحمل عابد بندقيته كي يطلق النار على الغزال.

- لا يا عابد. هذا غزال أنثى.

- يا أخي. الصيد لا يعرف لا أنثى ولا ذكر. ثم قل لي كيف عرفت أنه أنثى؟

- الغزال الذكر. يكون له قرون في رأسه يا ذكي!..

قفز الغزال مبتعداً. وهم يتناقشون، ولاذ وراء شجيرات الشوح في الصحراء.

- يا أخي. الصيد لا يحتاج إلى فلسفة ومشاعر نحن نحتاج إلى أي شيء نصطاده، حتى لا نعود خاليي الوفاض.

- بالعكس. الصيد رياضة للنفس والجسد. يحسّ الإنسان معه بالحرية عندما يخرج للصيد، وينبغي أن يتم انتقاء الطريدة، انتقاءً، لا أن نطلق النار على أي شيء يتحرك. وإلا كنا قتلنا ضبعاً أو ابن آوى وعدنا به.

- هكذا روّحت الصيده علينا يا أبو فهد..؟ الله يسامحك، ثم قاموا بعد ذلك وبدؤوا يتجولون في أرجاء المنطقة. ولم يمضِ قليل من الوقت، حتى كان قطيع من عدة غزلان يمرّ قريباً منهم. يقودهم غزال ضخم الجثة يحمل في رأسه قروناً كأغصان الشجر.

أحس ذكر الغزال بأن أحداً يراقبه. توقف ورفع رأسه متشمماً الهواء الذي قد يجلب إليه رائحة الصيادين، سدد صقر بندقيته على الغزال الذكر وأطلق بو ...و..و .. ترددت أصوات الطلقات في أرجاء الصحراء.

أجفلت الغزلان، وقفزت هاربة، باستثناء الغزال الذكر الكبير، الذي سقط على الأرض.

ركض إليه الرجال، كانت أرجله ترتجف وهو يحاول النهوض، إلا أن أرجله ترفس في الهواء وتصطدم بالفراغ فيعاود تحريكها من جديد. كانت عينه تطرف والدم يسيل من خاصرته إلى الأرض خيطاً رفيعاً قانياً بلون الزهر.

تذكر صقر، كيف أن المسك الأبيض يستخرج من خاصرة الغزال.

نظر إليه بحنوٍ وقرفص قربه ينظر إليه، حتى تلاشت حركاته وخفت وميض الحياة فيه.

كانت حصيلة رحلة الصيد غزالاً كبيراً وثلاثة أرانب جلبها الرجال إلى المخيم. حيث اجتمعوا مساءً. وأشعلوا ناراً كبيرة من شجر الشوح والأشواك الموجودة بكثرة في المنطقة، ووضعوا الطرائد عليها وأكلوا، وأكلت زوجة صقر والأولاد بتلذذٍ كبير.

في الليل. أسرّت زوجة صقر لزوجها أنها حامل.

- حامل..؟ فكر بقلق.

أنت تعلمين أن الوضع هنا صعب. وحياتنا غير مستقرة وظروفنا قاسية، لازم تنتبهي لنفسك.

- ماذا أفعل... نصيب.

- ٢ -

بعد أيام. قدم شفيق الفيصل إلى المخيم قادماً من الجبل عن طريق عمان. جالباً معه بعض الحاجيات والبضائع للبيع والشراء التي يحتاجها السكان.

تحلّق الرجال حول شفيق، وأخذوا يسألونه.

- أخبرنا كيف حال الجبل؟

- الناس عافت حياتها. والفرنسي ضاغط على السكان هو وأزلامه. أما الرجال فهم يسافرون إلى فلسطين ولبنان من أجل العمل.

- والصوانة، كيف حالها يا سيد شفيق. هل مررت عليها من قريب...؟ سأل صقر.

- كنت فيها منذ خمسة عشر يوماً تقريباً.

- كيف وضع الناس فيها.. هل يتعدى عليهم أحد..؟

- لا تخافوا على الأهالي. يستطيعون أن يحموا أنفسهم جيداً. والرجال يعرفون كيف يحافظون على كرامتهم وإنما للأسف. الذين يبرزون اليوم ويكون لهم الأمر والنهي، فهم أشباه الرجال.

- ماذا تقصد يا أخ شفيق؟

- أقصد... أنه بعد المرحوم أبو قاسم ماجد السالم والمرحوم أبو نايف محمود الظاهر. أصبح مسعود الحسون هو المختار. وهو المشير في أمور القرية.

- ماذا تقول..؟ مسعود الحسون هو المختار.

- نعم. ولم يجد الفرنسيون أصلح منه.

هزّ صقر رأسه أسفاً وقال:

- صحيح كما يقول المثل (عندما تغيب الأسود ترتع الثعالب).

تقدم شفيق من صقر. وكان يعرفه من أيام قبل الثورة.

- أخبرني كيف حالكم أنتم يا أبو فهد.

- الحمد للّه يا أخ شفيق. الحال مثل ما أنت شايف.

- يلزمكم شيء. قل ماذا تريد أنت وعيالك.

سكت صقر.

- قل يا صقر ماذا تريد. أنا أرى لباسك ولباس أولادك المحترق.

- واللّه نحن بحاجة إلى بعض الحاجيات، لكن الحال، أنت تراه، لا يوجد معنا مصاري.

- لا يهمك يا أبو فهد. خذ الذي تريده، وبعدين نبقى نتحاسب. الأيام آتية.

أخذ صقر حذاءً وقمبازاً له وكوفية للرأس. كما أخذت زوجة صقر قميصاً لها، وللولدين قمصاناً وأحذية.

- إن شاء اللّه، عندما نرجع. نبقى نسدد لك دينك وزيادة.

في المساء. قدم نايف وسهر عند صقر في الخيمة.

- شايف يا نايف، كيف أن الزمن بدّل الأحوال.

ذهب الذين عندهم كرامة وبقي الانتهازيون .... مسعود الحسون الذي نزل القرية غريباً عنها أصبح اليوم هو مشير القرية، بعد أن كنا لا نحسب حساباً له أو لأمثاله، وعلى فكرة. حادثة إطلاق النار عليك في الصوانة، مسعود الحسون هو الذي استدرجك في الليل، وهذا يدل على أنه كان متواطئاً مع الذين أطلقوا عليك النار بالتأكيد.

هو دبّر المكيدة وتنصّل منها. وهذا يفسّر سوء النية، هو يريد أن يضرب عائلتينا ببعضهما البعض لإضعافهما ويخلو الجو له كي يسود في القرية.

- فعلاً، كم كنا ساذجين عندما كنا نتلهّى بمنافسات سخيفة وترهّات لا تفيد شيئاً. ونغض الطرف عن الذين يسعون لإهلاكنا وإضعافنا.

مضى الشتاء. قاسياً صعباً على صقر وعائلته، فقد كانت زوجته تشحب بفعل الحمل وسوء التغذية.

كان عندما يراها في تلك الحال يعتصر قلبه ألماً لكن ماذا يفعل؟

يخرج للصيد أحياناً. لكن الصيد في الشتاء قليل. يصيد أرنباً أحياناً ويأتي به إلى البيت. يسلخ جلده، ويوقد ناراً ويشويه.

- كل أنت قطعة لحم يا صقر. تقول له زوجته.

- لكنه لا يهتم لنفسه، بل يهتم بإطعام الصغيرين، وينظر إلى زوجته ليتأكد أنها تأكل.

كما أن التموين القادم من عمان. غالباً ما يتأخر عدة أيام حيث تكون الأسرة قد استنفدت موادها التموينية فتبيت عدة ليالٍ على الطوى، إلا مايتيسّر من فضلات المواد المتبقية هنا وهناك لا تسدّ الرمق.

قدمت أم جابر في أحد الأيام.

- يا أهل البيت..؟ يا أهل البيت...

- يا هلا بأم جابر، تفضلي.

دخلت أم جابر إلى الخيمة وقبّلت الصغيرين.

- هاتي. هاتي. يا أم فهد لأفرّغ الشكوى.

وأحضرت أم فهد وعاءً. أفرغت فيه اللبن. وسقطت كتلٌ من الزبدة البيضاء بالوعاء مع اللبن.

- ليش هيك يا أم جابر؟

- الزبدة من أجل العيال. الخير واجد والحمد لله. ثم وضعت يدها على رأس الصغير... كل يا بنييّ. كل.

أعلمت أم فهد أم جابر أنها حامل.

- لا تخافي ولا تهكلي همّ. بس أنتِ استريحي. والله يجيب العواقب سليمة.

طلبت أم فهد من أم جابر بعض الحوائج النسائية اللازمة للطفل المنتظر، ثم أخرجت من عبها قطعة نقدية حاولت أن تقدمها لأم جابر.

- لا ... لا ... يا بنت الحلال. انتِ أختي بعهد الله والأغراض يوصلونك إن شاء الله.

خبّي قروشك ... ضبيها.



بماذا تفكر يا صقر. اللّه بيفرجها علينا.

كان صقر يتحدث مع زوجته وهو مستلقٍ على ظهره يفكّر، ثم ضمّ فروته إلى جسمه وتكوّر على نفسه قليلاً وغفا....

رأى نفسه في الحلم. يسبح في غدير القطا. كانت طيور القطا تحطّ في الماء لتشرب، أسراباً أسراباً. ثم رأى مسعود الحسون يطلق النار على تلك الطيور. فيرديها قتلى بالعشرات. فينتشر دمها في صفحة الماء، ويغدو الماء عكراً بلون الدم.

يصيح بمسعود الحسون.

- لا ... لا ... لكن مسعود لا ينظر إليه. وهو مشغول بجمع الطيور القتلى ووضعها في كيس كان معه بسرعةٍ. ثم رأى أخاه ماجد جالساً على صخرةٍ جانب الغدير وهو يضحك يراقب المشهد.

- يا ما....جـ .....د. يا ما.... جـ......د.

إلا أن ماجد لا يسمعه ولا يرد عليه.

فيصيح بأعلى صوته مجدداً. يا ما....جـ....د.

إلا أن صوته لا يخرج من فمه وماجد أخوه لا يأبه لندائه، ثم يرى أحد الضيوف الذين حضروا الإجتماع في الخيمة ممن يلبس البذلة الإفرنجية ويرتدي طربوشاً أحمر على رأسه، يشير إليه بإصبعه. فيعتريه الخوف.

- لا ... لا... ويتصاعد لهاثه في الحلم.

- صقر ... صقر ... اصحَ... اصحَ ... كلمته زوجته وهزته من كتفه برفق.

- ها ... نعم .... شوفي.

- أنت تحلم وتتكلم في المنام.

أفاق صقر وفرك بيديه عينيه وقال:

بسم الله الرحمن الرحيم، كان كابوس يا أم فهد. الله يجيرنا من هالمنام،ناوليني شربة ميّ.

- استهدي بالله يا صقر، أنت تعبان، نام وتغطى جيداً.

- رأيت حلماً مزعجاً يا أم فهد. الله يكفينا شره.

- خير إن نشاء الله ... المنام أحيانا يكون رؤية للمستقبل يأتي بشكل إشارات ضوئية تلتقط التقاطاً كالشفرة، أو تنفيساً عن هم معين أو مشكلة نفسية ضاغطة على الإنسان. يكون للحلم هنا دور زر التنفيس والمساعدة على تخفيف الضغط عن الإنسان، أو يكون الحلم أحياناً بصيغة حلول مفترضة لمشكلة ما، يقوم بها الوعي الباطني بصيغة حلول لمشاكل تؤرق نفس الإنسان.

- لقد أخافني هذا المنام، لأني لم أشاهد فيه شيئاً يسرّ.

وقص صقر على زوجته ما شاهده في الحلم.

- أنت تقول. أنك رأيت الدم قد غطى مياه غدير القطا.

وأنا سمعت الشيخ مصطفى يقول، أن الإنسان إذا شاهد دماً في المنام، فإن المنام يفسد ولا يتحقق منه شيء.

- إن شاء الله خير.

عاد صقر واستلقى مجدداً على ظهره. ثم مال إلى جنبه الآخر بعد أن شرب قليلاً من الماء وغفا في الحال.



بعد يومين، وفي مطلع النهار. أخذت أم فهد تطلق.

- اذهب يا صقر واحضر النسوان... الله يبعثك يا أم جابر. ابتهلت زوجة صقر إلى الله بتضرع.

ذهب صقر مسرعاً وراء امرأتين من النساء القلائل اللواتي قدمن مع أزواجهن إلى المنفى.

حضرتا بسرعة. ودخلتا إلى الخيمة، وطلبتا من صقر أن يشعل النار لتسخين الماء. ثم أغلقتا الخيمة ومنعتا أحداً من الاقتراب منها.

عند الضحى. حضرت أم جابر.

- يا الله يا أم جابر. ادخلي. أم فهد بدأت توّلد.

- الله يخلصّها بالسلامة. ثم دخلت إلى الخيمة مع المرأتين الأخريين، بينما كان صقر يخرج بولديه بعيداً عن الخيمة يجلس على الأرض يترقب الأخبار.

بعد قليل خرجت إحدى المرأتين اللتين دخلتا قبلاً.

- خبّريني يا أم حمد...؟

- مرتك جسمها ضعيف يا أبو فهد... الله يستر.

فرك يديه بقلق، وضم ولديه بخوف عليهما.

- حاولوا، حاولوا جهدكم يا أم حمد، اللّه يخليكم.

- نحن نعمل جهدنا، والباقي على اللّه.

كان صوت زوجة صقر يخرج من الخيمة وهي تصرخ واهناً ضعيفاً. بينما كانت النسوة يشجعنها على الصبر والصمود.

- أمي ماذا بها يا بابا؟ سألت الطفلة يمنى.

- إنها تولد يا حبيبتي.

- يعني سيكون عندنا طفل صغير.

- إن شاء اللّه.

- هل هي مريضة يا بابا..؟

- قليلاً يا عيني.

- هل ستموت.

- لا يا حبيبتي .. لن تموت ... ستعيش إن شاء اللّه.

تذكر يوم ولدت له ابنه فهد. كان يومها ذاهباً لطحن القمح في قرية عين النمر. والفصل شتاء. وقد عاد مع من عاد من الطحن. وهو يسرع الخطا نتيجة البرد الذي قاساه عندما ذهب من قريته قبل الشمس، وعاد بعد الظهر ليجد الدخان يتصاعد من سطح منزله، وأم ناصر الداية في الدار تقابله بوجهٍ يطفح بالبشر.

- مبروك يا صقر، جاءك ولد.

- اللّه يبشرك بالخير يا أم ناصر. ومد يده إلى عبّه، أخرج منه مئة ليرة ذهبية أعطاها لأم ناصر بشارة.

- متى ولدت؟ لقد ذهبت في الصباح ولم يكن يظهر عليها علامات الولادة.

- منذ ساعتين... الحمد لله كانت الولادة سهلة.

دخل إلى البيت. فوجد زوجته راقدة في الفراش تبتسم له وتضع إلى جانبها طفلاً صغيراً، مقمطاً بالقماط. لا يظهر منه سوى جزء صغير من وجهه الطفولي.

- الحمد لله على السلامة يا شامية. وانحنى على الصغير ورفعه بين يديه. ورفع الغطاء قليلاً عن وجهه. كان وجهه أبيض، جميلاً، وعيناه الصغيرتان تتحركان، نظرتا إليه.

ضحك له، وقبله ... ما شاء اللّه .. ما شاء اللّه. بسم اللّه الرحمن الرحيم... أهلاً وسهلاً. أهلاً وسهلاً يابا يا فهد.

- ضعه جانبي يا صقر، أخاف عليه أن يأخذ برد.

أحس بغصةٍ نتيجة المقارنة بين ولادة ابنه فهد في القرية. حيث تتوفر كافة الخدمات الضرورية. من الدفء. والغذاء، والداية المجرّبة. إلى العطف والحنان. الذين أحيطت بهما زوجته في تلك الولادة. وبين هذه الولادة. في مثل هذه الظروف القاسية. فلا تغذية مناسبة، ولا دفء، ولا خبرة للنساء المشرفات على ولادة زوجته.

أيقظه من شروده، بكاء طفل في الخيمة. تلاشى معه صوت الأم المتألمة الواهنة.

خرجت أم جابر من الخيمة، واتجهت إلى الناحية التي يجلس فيها صقر بوجهٍ يعلوه البشر، وهي تقول:

- ابشر يا أبو فهد، ابشر، جاءك عريس.

- اللّه يبشرك بالخير يا أم جابر... أنتِ تستحقين كل خير على هذه البشارة.

- ما أريدك إلا سالم يا أبو فهد.

- وأم فهد كيف حالها.؟

- تعبانة شوي، خليّها تنام.

بعد فترة، دخل صقر إلى الخيمة، كانت أم فهد قد صحت من الإغفاءة القصيرة التي أعقبت الولادة.

- الحمد للّه على سلامتك يا أم فهد.

- اللّه يسلمك ياصقر، ردت عليه بصوت واهن.

- كيف الولد...؟ صحته مليحة.

- مليح ... المهم أنتِ ارتاحي.

- أعطوني الصبي. دعوني أراه. قالت بشوق. اقتربت إحدى النساء من أم فهد، ووضعت الصبي بجانب أمه، انحنت عليه. قبلته، قالت لزوجها... سميّه جابر يا صقر... أنت سامع؟

- كما تريدين ... أم جابر تستحق كل خير.

خلال الليل تعبت زوجة صقر واصفرّ لونها وأصبحت نظراتها شاردة.

سهرت النساء عندها. بينما كان صقر يدخل ويخرج إلى الخيمة قلقاً على زوجته.

- يارب احميها، لأجل أطفالها. أحس وكأن شيئاً ينتزع منه زوجته.... أيعقل أن تموت هنا..؟ في هذه الصحراء..؟ بعيداً عن القرية، أحسّ بحبٍ جارفٍ لزوجته. التي خاطرت وأتت معه، متحملةً كل مشاقّ الطريق، وخشونة العيش في الصحراء، متحملة حالة الفقر الشديد والعوز التي عاشاها مع أطفالهما كي لا تفارقه، تقتسم معه حلو العيش ومره.

دمعت عيناه. وأطلق تنهيدة تنفس عن صدره المكروب. نادت إحدى النساء على صقر أن يدخل الخيمة، إن زوجته تريد أن تراه.

دخل صقر إلى الخيمة واقترب من زوجته، وجلس قربها.

- خير ان شاء الله يا أم فهد.؟
- وداعتك الأولاد يا صقر.
- ماذا تقولين يا أم فهد، لا تقولي ذلك.
- كله نصيب يا صقر.

انحنى صقر على زوجته وعيناه تدمعان ... ستعيشين يا أم فهد .... ستعيشين، إن شاء الله.

- خليها ترتاح يا صقر، اتركها، قالت أم جابر.

خرج صقر من الخيمة وقلبه يعتصر ألماً.

وما أن ابتعد قليلاً. يريد أن يتنفس الهواء. حتى سمع النساء يعولن ويبكين.

- يا خسارة شبابك يا أم فهد.

- اللّه يعين زوجك وأولادك.

عاد مسرعاً إلى الخيمة. نظر إلى زوجته، رآها قد جمدت في فراشها وقد أغمضت عينيها وأسبلت يديها على الجانبين.

- ماذا حصل يا نسوان؟

- البقية بحياتك يا أبو فهد. قالت أم جابر.

- اللّه يصبرك، ويعينك على مصيبتك.

أقاموا مأتماً لأم فهد، حضره جميع الثوار الموجودون في المخيم وقد حضر المنصور أيضاً، جاء معزياً صقر.

- البقية بحياتك يا أبو فهد، العوض بسلامتك، أنتم عائلة تعوّدت على تقديم الشهداء. أم فهد تعتبر بمثابة شهيد من شهداء الثورة. وشد على يديّ صقر مواسياً.

في اليوم التالي. جاءت أم جابر وأخذت الطفل وأرضعته.

خليه عندي يا أبو فهد.

- لكن يا أم جابر..؟

- هو مثل ابني يا أبو فهد، والتي ترضع ولداً ترضع اثنين، بس أنت، دير بالك على الأولاد، ولا تقلق على جابر الصغير.

- غمرتينا بفضلك. اللّه يكثر خيرك.

مضت الأيام، كان صقر يذهب لزيارة جابر الصغير كما أسموه. كل بضعة أيام، حاملاً معه شيئاً من صيده. الذي يكون قد حظي به.. أرنباً في

الغالب، أو عدة طيور حجل، أو حتى قطعة من لحم الغزال، حالفه الحظ في اصطياده.

كانت صحة جابر الصغير جيدة. وهو يعيش مع جابر الكبير عند أم جابر. والحليب كافٍ لاثنين. الأمر الذي أراح صقر من القلق على ابنه الصغير وانصرف يهتم بولديه الكبيرين، فهد ويمنى.

قدمت سيارة عسكرية ذات يوم إلى المخيم. نزل منها ضابط انكليزي يرافقه عدد من الرجال الذين يرتدون الكوفيات الحمراء. يمتلئون صحة وعافية. يحملون البنادق وأجندة الرصاص متصالبة فوق صدورهم.

نزل الضابط من سيارته، وقال للرجال الذين اجتمعوا حول السيارة بلغة عربية مكسّرة:

- يجب مغادرة المكان خلال عشرة أيام.

- لماذا...؟ سأل الرجال.

- إننا لا نؤذي أحداً، قال آخرون.

- نحن لا نستطيع أن نسيء علاقاتنا مع فرنسا لأجلكم، أجاب الضابط.

- يا أخوان، الفرنسيون رايحين جايين لعمان. يضغطون على الإنكليز لأجل ترحيلكم، وتعرفون أن الإنكليز ما في معهم مزح.

بعد يومين، قدمت طائرة حربية انكليزية، مرت فوق المخيم. ثم عادت من جديد. صنعت عدة مناورات انقضاض وهمية، ثم اتجهت شرقاً وانقضت

بقنابلها على بئر الماء الذي يشرب منه سكان المخيم، ثم عادت إلى فوق المخيم واتجهت إلى الغرب.

كان الناس والدواب الذين يملؤون الماء من البئر على غفلةٍ من أمرهم. عندما انقضت الطائرة عليهم بالقنابل اختلط صياح الناس بنهيق الحمير والبغال التي شردت، تحمل على ظهورها قرب الماء الجلدية، والمعدنية وهي تشرشر على الأرض، وتقع عن ظهور الدواب.

وقد قتل رجلٌ في هذه الغارة، وجرح آخر. كما نفقت بعض الحيوانات.

قام الإنكليز في هذه الغارة لتأكيد عزمهم على ترحيل الثوار من منطقة شرقي الأردن إرضاءً لحلفائهم الفرنسيين، كانت الرسالة واضحة، فلا مجال للتسويف أو المماطلة.

- أين نذهب يا ربع..؟ قال أحد الثوار سائلاً، في الاجتماع الذي عقده الثوار لتدارس الإنذار الإنكليزي.

- الأفضل أن نرحل يا إخواننا إلى ديرة الجوف. وهذه الديرة بعيدة عن الافرنسيين والإنكليز أيضاً، حتى يفرجها الله علينا.

- لكن ديرة الجوف تحت سلطة ابن سعود.

- لا نستطيع أن ننزل بها قبل أن نخبر ابن سعود بذلك، وبناءً عليه تقرر إرسال ثلاثة رجال إلى ابن سعود كي يستأذنوا نزولهم في ديرة الجوف.

بعد عدة أيام عاد الرجال الموفدون إلى ابن سعود وقد حصلوا على موافقته أن ينزل الثوار في منطقة الجوف بشرط عدم القيام بأي أعمال عسكرية ضد الفرنسيين أو ضد الإنكليز.

- أنا لا أستطيع أن أرحل معكم، قال صقر لرفيقيه نايف وعابد.. عندي أولاد، أمهم ماتت، كما أن جابر الصغير عند أم جابر ما زال يرضع، لا أستطيع أن أتركه، ثم قال بعد لحظات.

- أنا قررت أن أعود إلى الجبل، والذي يحصل يحصل.

- معك حق يا أبو فهد، فعلاً وضعك صعب، أنت لا تستطيع أن تذهب بالأولاد أبعد من ذلك.

أما نايف وعابد فقد قررا البقاء مع الثوار الآخرين، الذين سيرحلون إلى ديرة الجوف باعتبار أن وضعهما أفضل نسبياً من وضع رفيقهما صقر. الذي يرافقه ثلاثة أطفال أصغرهم مازال رضيعاً.

قبل إتمام مدة الأيام العشرة التي حددها الإنكليز، كان رجال المخيم يستعدون للرحيل إلى منطقة الجوف، بينما كان صقر وبعض الثوار الذين ترافقهم عائلاتهم يستعدون للعودة إلى الجبل، خاصة الذين يتقدمون منهم في السن أو يعانون من مشاكل صحية.

قدمت أم جابر إلى المخيم قبل يوم الرحيل، جلبت معها جابر الصغير وأعطته لصقر، وقد ودعته وهي تبكي ودسّت شيئاً في قماط الصغير.

- دير بالك عليه يا أبو فهد... اسقهِ حليباً، وخففّه قليلاً بالماء. لأن معدته لا تتحمل الدسم القوي بعد. لفّه مليح. لا تخليه يبرد. اللّه معكم ... اللّه معكم.

- أصيلة يا أم جابر. واللّه لن أنسى معروفكم معي مادمت حيّاً.

قبل أن يمتطي صقر صهوة جواده. ذهب لزيارة قبر زوجته مصطحباً معه الأولاد الثلاثة.

وقف أمام القبر.

- مرحباً يا أم فهد... هؤلاء أولادك جاؤوا يودعونك.

- هاهو ابنك الصغير جابر، الذي لم تعرفيه جيداً، يسلّم عليك نحن نعود إلى الجبل يا أم فهد. وفي نفسنا غصّة، ستبقى منطقة الأزرق حيّة في نفوسنا، لأننا تركنا فيها حبيباً عزيزاً علينا جميعاً...

- بكى قليلاً على القبر وصمت، ثم تابع مناجاته... كنت أودّ لو دفنت في القرية، ولكن هكذا شاء الله تعالى وفتح يديه وقرأ الفاتحة على روحها.

الوداع يا أم فهد ... ودعوا قبر أمكم يا أولاد. ثم أمسك قبضة من تراب القبر ووضعه في كيس ووضعه في خرج الحصان، ثم احتضن الأولاد، واحداً بعد الآخر، وعاد ليلتحق بالقافلة التي تحركت للعودة إلى الجبل. ودع صقر رفيقيه عابد ونايف بالعناق والقبلات.

- لا تخافوا على القرية وأهلها... المهم. أنتم، ديروا بالكم على حالكم، وإن شاء الله تعودون بالسلامة.

في الطريق، ظهرت رفوف طيور القطا، تغطي عين الشمس وهي تطير طيراناً متناغماً منسجماً مع بعضها البعض، لتشكل بطيرانها شكل رأس سهم فينطلق إلى الأمام.

وضع صقر يده فوق عينيه. ليتقي ضوء الشمس وهو يراقب طيران الطيور.

كان فهد ابن صقر يراقب أيضاً رفّ الطيور.

- هذه هي طيور القطا يابا... التي أخبرتنا عنها..؟
- نعم يافهد... إنها تشبهنا ، وهي تعود أيضاً إلى بلادنا.
- لوين راجعة يابا..؟
- لغدير القطا في قريتنا الصوانة.
- وهل تعرف الطريق إلى الصوانة.؟
- بالتأكيد. إن الطير يابنيّ، إذا أقام في مكانٍ معينٍ فإنه لا بد أن يعود إليه ولو قطع الصحارى والبحار.

فكر صقر، بالمصير المشترك لكليهما. نعم كلانا يدفعنا الشوق والحنين، وكلانا ينتظرنا من يسعى لإلقاء القبض علينا.

نحن ينتظرنا الفرنسيون، وهم ينتظرهم الصيادون، وربما مسعود الحسون ينتظر عند غدير القطا ، والفرق بيننا وبينهم، أنهم يسبقوننا في طيرانهم. فيصلون قبلنا إلى البلاد. ليتني أستطيع أن أسبقها في طيرانها كي أصل قبلها. حتى أمنع مسعود الحسون من اصطيادها ، فتبقى حرة طليقة في طيرانها.

فكّ قماط جابر الصغير، فوقعت منه ورقة ملفوفة بشكل جيد. علم أن أم جابر قد صنعت حرزاً لجابر الصغير كي يقيه أخطار الحياة.

هـزّ رأسـه باسمـاً ابتسامة الرضـى. لقـد أحـسّ أن العطـاء الإنـساني لا حدود له. وكما توجد في الحياة صور قاتمة، وناس يصنعون الشر. كذلك يوجد ناس طيبون، لا حدود لعطائهم.

كـان مـسعود الحسون، وبحكـم وظيفتـه الجديـدة كمختـار في قريـة الـصوانة، مكلـف بـالإبلاغ عـن أي شـيء يحـدث في القريـة للـسلطات الفرنسية.

وقد علم أن صقر السالم قد عاد من منفاه مع الثوار.

تردد أن يذهب إليه.

فكّر، أنه لا يستطيع أن يقطع الصلة مع آل السالم فهو في النهاية من سكان القرية.

وأخيراً، قرر أن يذهب إلى صقر.

- الحمد للّه على السلامة يا أبو فهد.

- أصبحت أكبر من هيك..؟ لم تعد تـأتي إلى بيت السالم إلا بدعوة يا مسعود..؟

لـيس هكـذا يـا أبـو فهـد ... أنـا أتيـت لأقـول لـك أن تـسلّم نفـسك للسلطات أحسن، لأن الفرنسيين يلاحقونـك وقـد علمـوا أنـك وصلت إلى القرية.

ليفعلـوا مـا يريـدون. أنـا لم أرجـع إلا وأنـا مـستعد لكـل شـيء، المـوت ببلادنا أهون من حالة اللجوء والغربة.



- ٣ -

كانت الزنزانة التي أقام بها صقر في سجن القلعة في دمشق تقع تحت الأرض، تعبق الرطوبة بها، ذات جدران حجريةٍ قديمة، توحي أنها بنيت في زمن قديم، ربما ترجع إلى عهد الرومان أو اليونان. وهي مستطيلة الشكل عميقة، تقع تحت الأرض. ذات سقفٍ عالٍ، لا يدخلها الضوء، إلا من نافذةٍ صغيرةٍ تقع في زاويتها الشمالية الشرقية المغلقة بقضبان حديدية ثخينة.

يتدلى من وسط السقف مصباح كهربائي شاحب، ينير ظلمة المكان، ويجعل نزلاءها بالكاد يتعرفون على بعضهم البعض. وهي بالمحصلة أشبه بقاع بئرٍ جاف.

كانت صحة النزلاء سيئة. فهم في غالبيتهم يعانون من الربو المزمن. يتضح ذلك من خلال سعالهم المتواصل، وربما يلاقون حتفهم. إذا لم يطلق سراحهم.

تعرف صقر على أبو سليم الشاغوري في الزنزانة، ووضع فراشه جانب فراش أبو سليم.

ذلك النزيل، الذي يقبع في السجن منذ أيام الثورة. وقد ألقي القبض عليه بعد إحدى المعارك في حي الشاغور وحكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص مع رفاقٍ آخرين.

كان حظه حسناً. حيث تأجل تنفيذ العقوبة به. بينما تم تنفيذ العقوبة برفاقه الآخرين.

- قلت لي إن اسمك أبو فهد..؟

- نعم

- يا هلا ... يا هلا.... يا أبو فهد.

- أهلاً بك يا أبو سليم.

قصّ أبو فهد قصته على أبو سليم منذ قيام الثورة إلى اللجوء إلى شرقي الأردن ووفاة زوجته وعودته إلى البلاد من أجل أطفاله. وكيف أن المختار مسعود الحسون أخبر السلطات عنه.

- أخس عليه... رجل خسيس. عاش بينكم وخدمكم ثم يخونكم، ثم ربت على كتف أبو فهد.

- أصيل ابن أصيل يا أبو فهد.... لا يهمك. مصير الثعالب أن تموت مهملة.

- وأنت يا أبو سليم كيف وضعوك في السجن.؟

أنا كنت من العصابة التي يقودها محمد الدرخباني - وعبد القادر سكر - ومحمد الأشمر. وقد جرحت في رجلي بإحدى المعارك في حي الشاغور. بعدها تسللت إلى منزلي وقبعت فيه أتعالج، إلا أن السلطات علمت بوجودي في البيت. أتوا أحد الأيام وأخذوني من المنزل وأنا جريح. وقد أنكرت انني جرحت أثناء المعركة. ومع ذلك لم يصدقوني وحكموا عليّ بالإعدام. ثم خفف الحكم إلى السجن لعدم وجود إثبات لديهم أنني اشتركت في المعركة.



كانت المحكمة مكونة من أربع قضاة. يلبسون البذات العسكرية. ورجل عسكري شاب يقف ناحية جانبية من القضاة الأربعة، يبدو أن المحكمة قد عينته كمحامٍ للدفاع عن المتهم.

- أنت صقر السالم..؟ سأل كبير القضاة.

- نعم.

- أنت متهم بحمل السلاح ضد الجيش الفرنسي المنتدب على سورية. والاشتراك في أعمال التمرد والعصيان، وساهمت مع المتمردين في القضاء على الجيش الفرنسي في معركة المزرعة، كما ثبت أنك اشتركت في الهجوم على المعسكر الفرنسي في المسيفرة.

بالإضافة إلى ذلك، فإنك متهم أنك غادرت البلاد دون علم السلطات وتعاملت مع أعداء فرنسا في الخارج.... ماذا تقول:

- ليس الأمر كما تصفه يا حضرة القاضي. قال صقر رافعاً رأسه وموضحاً رأيه في التهم المنسوبة إليه.

- إنني اشتركت في الثورة وفي المعارك التي نشبت بها حيثما قامت في هذه البلاد مع من اشترك من أهلي وأهل بلادي. هذا صحيح. ثم تحدث صقر بإسهاب عن وقائع الثورة التي جرت ومعارك اللجاه والظروف التي دفعته إلى مغادرة البلاد والعيش تحت وطأة الجوع والحرمان في الصحراء مع رفاقه الثوار الآخرين ومع نسائهم وأطفالهم. وحالة البؤس والعوز التي عاشوها.

- إذاً. أنت تعترف أنك قتلت عدداً من الجنود والضباط الفرنسيين..؟

- أنا اشتركت في الحرب بشرف، والذي يحارب يمكن أن يُقتل أو يَقتل.

- أنت تقول. أنك قمت بدفن جثة الطيار الفرنسي القتيل، الذي سقطت طائرته في اللجاه...؟ ما هو دليلك على ذلك.

عندها أخرج صقر من عبه اللوحة المعدنية التي انتزعها من عنق الطيار قبل دفنه ووضعها على الطاولة.

- تفضلوا:

أمسك أحد القضاة اللوحة المعدنية ونظر إليها جيداً ومررها إلى زملائه بالتتالي الذين دققوا في اللوحة وقد ظهرت على وجوههم علامات التصديق لما يقوله صقر. حيث قرؤوا ما فيها (لوي شايمان) ثم نظروا إلى بعضهم البعض وتهامسوا قليلاً. وقال كبيرهم.

- ترفع الجلسة للاستراحة مدة نصف ساعة.

بعد نصف ساعة عادت المحكمة للانعقاد من جديد.

قال كبير القضاة:

- محامي الدفاع يتفضل.

تقدم الشاب الذي كان يقف بصورة جانبية عن منصة القضاة والذي يبدو أن المحكمة عينته محامياً عن المتهم.

- سيدي الرئيس:

إن موكلي اعترف أنه اشترك في التمرد والعصيان مثل سائر الناس في هذه البلاد. الذين قاوموا الوجود الفرنسي. الذين لم يروا في هذا الوجود، تلك المزايا الحسنة لنظام الانتداب الذي كلفنا بتطبيقه يساعد على ذلك

تصرفات بعض عمال إدارة الانتداب الاستفزازية، التي لم تقدر مشاعر الناس أو تحترم عاداتهم وتقاليدهم.

وأما اشتراكه مع قوىً خارجية ضد فرنسا، فهذا مما لم يثبت بالدليل القاطع. فلقد أقام موكلي في الخارج إقامة لجوء في الصحراء، وقد عانى من شظف العيش والحرمان ما لا يوصف، كما أنكم تثبتم من أقواله بصدد الطيار الفرنسي الذي سقطت طائرته في اللجاه وقام المتهم بدفنه، وهذا إن دلّ على شيء، فهو يدلّ على إنسانيته ورقيّه وأنه لا يعادي الفرنسيين لأنهم فرنسيون، وحيث أن المتهم لم يستفد من العفو العام الذي منحته السلطات الفرنسية لمن اشترك في الثورة وساهم في أعمال التمرد والعصيان بسبب وجوده خارج البلاد.

وحيث أن البلاد تتجه الآن للهدوء والسكينة، فإنني أرى أن لا مصلحة لفرنسا ولوجودها في المنطقة، أن تصدر أحكاماً قاسية. من شأنها أن تعيد التوتر من جديد وربما تدفع إلى الثورة مجدداً.

مما تقدم سيدي الرئيس، إني التمس من عدالة المحكمة العفو عن موكلي أو إيقاع عقوبة خفيفة كي ينصرف إلى أسرته، التي هي بأمسّ الحاجة إليه.

بعد اختلاء القضاة مع بعضهم البعض، عادوا من جديد حيث طلب رئيس المحكمة من المتهم أن يقف، وأخذ يقرأ الحكم الذي توصلوا إليه.

- باعتبار أن المتهم اعترف باشتراكه في الثورة التي قامت واشتراكه في المعارك التي حصلت خلالها. فإن المحكمة تحكم على المتهم بالسجن لمدة عشرة أعوام.

وحيث أنه ثبت، أن المتهم قد قام بعملٍ نبيل، وهو قيامه بدفن جثة أحد الطيارين الفرنسيين الذين سقطوا في المعارك، وتدليلاً على أن فرنسا تقدّر الأعمال النبيلة والإنسانية. وتكافئ على فعلها فإن العقوبة تخفّض إلى النصف.

قراراً وجاهياً .... إلخ



مرت الأيام والشهور مملّة برتابتها وظلمتها، خففت منها روح الصداقة التي انعقدت بين صقر وأبو سليم زميله وبقية رفاقه الآخرين في الزنزانة إلى أن جاء يوم بعد مرور ثلاثة سنوات.

صاح الحارس على صقر السالم.

- صقر السالم .... زيارة.

خرج صقر من زنزانته، قاده أحد الحراس إلى الردهة الداخلية للسجن حيث يجلس رجل وامرأة كبيران في السن على مقعدٍ خشبي.

عندما وصل صقر إليهما وقفا وسلما عليه. وعيناهما تستطلعان صقراً، وفيهما شيئاً من العطف والود.

- من هما...؟ سأل صقر.

تحدّثا بعربية مكسّرة، وسألا صقراً، إذا كان هو آخر من شاهد ابنهما الطيار، وأنه هو الذي قام بدفنه بعد سقوط طائرته.

- نعم، أجاب صقر.

- هل تعرف مكانه؟

- نعم

- شكراً لك. لن ننساك، سنعمل على إخلاء سبيلك خلال مدة. وسنذهب لزيارتك في قريتك وتذهب معنا وتدلنا على قبر ابننا.

عاد صقر إلى زنزانته وهو يفكر. كيف أن هؤلاء الفرنسيين المتمدنين، حريصون حتى على رؤية قبور أبنائهم ولو بعد سنوات طويلة. وكيف لا يفكرون بالذين سببوا لهم الموت والدمار في هذه البلاد. كيف سمحت لهم أنفسهم أن يحرقوا جثث الشهداء في المسيفرة، دون أن يعطوا الفرصة لأهالي الشهداء في أن يتعرفوا على قبور أبنائهم ويقومون بزيارتها، كما يريد هذان الزوجان الفرنسيان أن يسافرا إلى اللجاه لزيارة قبر ابنهما القتيل.

أخبر صقر أبو سليم عن لقائه بالزوجين الفرنسيين والحديث الذي جرى بينهما.

- يظهر أن أيام سجنك قرّبت تنتهي يا أبو فهد، قال أبو سليم.

بعد شهر، نادى السجان مجدداً على صقر السالم. وأخبره أن له زيارة.

خرج صقر من زنزانته لمشاهدة الزائر.

كان الزائر شاباً في ريعان الشباب، قد خطّ شارباه الأسودان، ووجه ممتلئ، تطفح منه الصحة، وعينان واسعتان، شهلاوان.

وقف أمامه. وبينهما شبك الحديد.

- مرحباً يا عمي... كيف حالك. كيف صحتك..؟

- من ...؟ قاسم..؟ ما شاء الله، ما شاء الله أصبحت رجلاً.

- المهم كيف وضعك أنت يا عمي. إن شاء الله بتفرج.

- أنت أخبرني، كيف الصوانة..؟ وكيف أمك والأولاد.

- بخير، فهد ويمنى وجابر بيسلمون عليك.
- أخبرني. كيف حال أهل البلد..؟ ماذا يوجد أخبار.
- وكيف حال الشيخ مصطفى.
- الشيخ مصطفى توفى.
- كيف ... متى..؟
- منذ خمسة أشهر، مرض وتوفي.
- رحمه الله ... نكّس صقراً رأسه حزناً على الشيخ مصطفى. غير ذلك ماذا يوجد أخبار.
- مسعود الحسون مات.
- كيف مات..؟
- انهالت عليه قنطرة البيت. ولم يستطع أهل القرية إخراجه إلا بعد أن شوهت كافة معالم جسمه ووجهه. هز صقر رأسه. وقال مردداً بينه وبين نفسه: صدق أبو سليم عندما قال الكلاب تموت مهملة.
- ماذا تقول يا عمي.
- لا شيء .... غير ذلك. ماذا يوجد أخبار.
- يسلم عليك ماجد الصغير.
- ماجد ابني الصغير... لقد تزوجت يا عمي وأصبح عندي ولد أسميته على اسم أبي.
- مبروك يا قاسم. إن شاء الله يكبر ويحمل اسمه.

بعد مدةٍ قصيرةٍ أتى الحارس مجدداً وصاح على صقر.

- صقر السالم ..... إخلاء سبيل.

- مبروك يا أبو فهد ، عادت لك حريتك، أنا قلت لك أن أيام سجنك قرّبت على الانتهاء.

علم صقر. أن الزوجين الفرنسيين، والدي الطيار القتيل، قد عملا على تقديم طلب إخلاء سبيله بكفالة مكافأة على عمله النبيل. ولكي يتمكنا من الذهاب معه ويرشدهما إلى مكان قبر ابنهما في اللجاه.

....

خرج من سجن القلعة في صبيحة يومٍ ربيعيٍ بارد. يحمل كيس حوائجه على ظهره.

كان أحد حراس السجن من الجنود الأفارقة. ذوي البشرة السمراء، يقف عند بوابة السجن يبرطم بلغته الأصلية مع جندي آخر.

فكّر صقر لحظتها ... ما هذا التداخل العجيب.؟

يأتي إنسان من أحد البلدان الإفريقية. فيقيم حارساً على أحد أبواب السجن في بلدٍ آخر. كذلك يحارب أحد أبناء شمال أفريقيا تحت الراية المثلثة الألوان للدولة العظمى. ويبرع ذوو القلبق في مهاراتهم الفروسية لمطاردة الثوار في معارك الجبال، إنها مصالح فرنسا التي تجعل من أبناء البلدان المتعددة الألوان والشعوب تقتتل فيما بينها كي تحيا هي.

اتجه نحو حي سيدي عامود المجاور للقلعة، والذي كثيراً ما كان يأتي إليه للتجارة قبل الثورة مع من يأتي من أبناء قريته، يبيع ويشتري،

ويحلّ ضيفاً أحياناً عند أحد أهالي الحيّ من الدمشقيين العريقين الذين يفتخرون ببيوتهم المترفة، وورودها التي لا يضارع عطرها عطر.

راعه منظر الدمار الفظيع، فالشوارع تحولت إلى ركام. وأسقف المنازل والمحال التجارية، قد سقطت معظمها إلى الأرض، وشرفات المنازل العربية العريقة، قد سقطت من أماكنها، وأصبحت البيوت خربة، تصلح مأوىً للكلاب والقطط الضالة. إذ ليس عبثاً، أن تحوّل اسم الحيِّ الشهير، من سيدي عامود إلى حي .. الحريقة ...

خرج من الحيّ منقبض النفس، ومشى في الشارع الموازي كانت ضوضاء الناس قد أخرجته من مشاعره الكئيبة، بعدما شاهده من دمار الحيّ. اختلط بالناس وبضوضاء الشارع.

فها هو بائع خضار يقود حصانه عبر الشارع، وحوافر الحصان، تقرع أرض الشارع قرعاً بحدواته الحديدية وهاهي، أصوات الباعة. تعلو، فتطغى على المكان، فلا تكاد تميّز ما هي نوع البضاعة التي ينادون عليها.

في زاوية الشارع، وقف بائع فطائر، يضع فطائره على طاولة. يتحلّق حوله بعض الجنود، وهم يحملون بنادقهم على أكتافهم. أو يقذفونها وراء ظهورهم.

نزل إلى ساحة المرجة، كانت مختلفة عن ذي قبل، فلقد كثرت بها السيارات الآلية، مصطفة حول نصب الجامع المنصوب وسط الساحة، والذي يؤرّخ لدخول الكهرباء إلى دمشق عام ١٩٠٨ وقد سبقت بذلك عاصمة السلطنة العثمانية نفسها /استانبول/.

قرأ ما كتب على النصب، وفكر بينه وبين نفسه، تلك هي العراقة، وتلك هي الأصالة، حيث أن أكثر من أربعمائة عام من الاحتلال العثماني لدمشق وسواها، لم يستطع أن يغيّر أصالة المدينة وسبقها إلى التقدم.

كانت المحال التجارية في ساحة المرجة، أكثر حداثة، ومليئة بالبضائع المختلفة، لها سمات الرقي، وتعلّق لافتات بالفرنسية والعربية، وهي تغصّ بالناس، العرب والأجانب على السواء. كذلك كان منظر النساء لافتاً للنظر. حيث يتمشين فرادى أو مع أزواجهن وسط الساحة، ينظرن إلى واجهات المحال التجارية، بثيابهن الأنيقة وفساتينهن الفضفاضة يحملن مظلات ملونة يتكئن عليها أو يحملن سلالاً صغيرة بأيديهن يضعن فيها أشياءهن الصغيرة والجميلة.

والشيء الجديد، الذي لفت نظر صقر. هو التراموي. الذي يشقّ الساحة من شرقها إلى غربها، وشمالها. وقد أخذ الناس في استخدامه. مستغنين بذلك نوعاً ما عن القدوم راكبين على دوابهم.

وفي الجهة الغربية من الساحة، كان المنظر أكثر جديّة ورسمية. حيث الجنود الفرنسيون قد انتشروا بكثرة. بينما كانت الأعلام الزاهية ترفرف على دور الحكومة. بينما اصطفت أمام البناء سيارات المسؤولين والسادة الضباط.

كانت موسيقى أجنبية تصدح من بعض المحال التي يقف عندها بعض الأجانب، الذين يشترون اسطوانات جديدة. بينما صدحت موسيقى شرقية من مقهىً مجاور، جلس فيه عدد من الرجال، الذين يلبسون القنابيز المخططة والطرابيش الملونة، وهم يشربون النارجيلة.

اشترى علبة سجائر، واتجه إلى محطة الحجاز.

كانت المحطة تغصّ بالركاب المدنيين والعسكريين، بنساء يلبسن الملابس الثقيلة والطويلة، ويضعن أغطية الرأس على رؤوسهن، يجلسن على حوائجهن، أو يحملن أطفالهن بين أذرعهن، ورجال يجلسون على أرض المحطة. يتبادلون الأحاديث عن الأسعار وحالة الموسم.

أمام المحطة، كانت مجموعة من الجنود يتمشون جماعاتٍ جماعاتٍ. يقطعون الوقت بالأحاديث والتدخين بانتظار وصول القطار.

وصل القطار بصافرته المميزة الحادة، المتقطعة.

تـ ...و ... ط ـ تـ .... و ....ط .... تشك ... تشك ... تشك .... تشك

اندفع الناس إلى القطار، تضيق بهم أبواب العربات بأمتعتهم وحوائجهم المصرورة والمحزومة. بينما اندفع الجنود إلى العربات الأمامية، بأمتعتهم وبنادقهم، وهم يتصايحون.

تحرك القطار من جديد.

تشك .... تشك .... تشك

تسارعت محركاته، وتصاعد البخار من فوهة مدخنته إلى الأعلى، وعلا صفيره من جديد.

تـ ..... و ..... ط ـ تـ .... و ......ط

ومضى خارجاً من محطة الحجاز متجهاً إلى أزرع بطريق اللجاه.